الباب الثانى
من أخبار بنى أمية

١ - فصل

أول دولة بنى أمية معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما[١]

[٩] قيل : جلس يوماً فى مجلس كان له بدمشق ، وكان الموضع مفتح الجوانب الأربعة يدخل فيه النسيم من كل جانب ، قال : فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات ، وكان يوماً شديد الحر لا نسيم فيه ، قال: وكان وسط النهار وقد لفحت الهواجر[٢]، إذ نظر إلى رجل يمشى نحوه ، وهو يتلظى من حر التراب ، ويحجل فى مشيته حافياً فتأمله ، وقال لجلسائه: هل خلق الله سبحانه وتعالى أشقى ممن يحتاج إلى الحركة فى هذا الوقت وفى مثل هذه الساعة ؟ فقال بعضهم : لعله بقصد أمير المؤمنين، فقال : والله لئن كان قاصدى لأجل شىء لأعطينه وأستحلب

---

(١) صحابى من كتاب الوحى ، كان فصيحا ، حليما ، أسلم (٨هـ) ، ولاه أبو بكر جيش تحت إمرة أخيه ففتح صيداء ، وعرقة ، وبيروت . اسس الدولة الأموية فى الشام ، ودامت لهم الخلافة إلى أن بلغ سن الشيخوخة ، فعهد بها إلى ابنه يزيد ، له (١٣٠ حديثا) . بلغت الفتوحات فى عصره إلى المحيط الأطلنطى ، وهو أول من ركب بحر الروم وهو أول من جعل دمشق مقراً للخلافة ، وأول من اتخذ المقاصير ، وأول من اتخذ الحرس والحجاج فى الإسلام . وكان عمر بن الخطاب يقول فيه : هذا كسرى العرب، ت[٦٠هـ-٦٨٠م] .

(٢) الهَوَاجِر ، جمع هاجرة : نصف النهار فى القيظ ؛ من عند زوال الشمس إلى العصر لأن الناس يستكنون فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا .

الأجر به ، أو مظلوماً لأنصرنه . ياغلام قف بالباب فإن طلبنى هذا الأعرابى فلا تمنعه من الدخول علىّ فخرج فوافاه ، فقال : ما تريد ؟ قال : أمير المؤمنين ، قال : ادخل فدخل فسلم ، فقال له معاوية : ممن الرجل ؟ قال : من تميم . فما الذى جاء بك فى هذا الوقت ؟ قال : جئتك مشتكيا وبك مستجيرا ، قال : ممن ؟ قال: من مروان بن الحكم[1] عاملك ، وأنشد يقول :

معاوى ياذا الجود والحلم والبذل ... وياذا الندى والعلم والرشد والنبل
أتيتك لما ضاق فى الأرض مذهبى ... فيا غوث لا تقطع رجائى من العدل
وجد لى بانصاف من الجائر الذى ... بلانى بشىء كان أيسره قتلى
سبانى ابن سعدى وانبرى لخصومتى ... وجار ولم يعدل وأغصبنى أهلى
وهم بقتلى غير أن منيتى ... تأنت ولم أستكمل الرزق من أجلى

قال : فلما سمع معاوية كلامه والنار تتوقد من فيه ، قال له : مهلا يا أخا العرب اذكر قصتك وأبِنْ لى عن أمرك ، فقال : يا أمير المؤمنين كانت لى زوجة، وكنت لها محبا وبها كلفا[2]، وكنت بها قرير العين طيب

---

(١) مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أميه أبو عبد الملك : من خلفاء الدولة الأموية ، وهو أول من ملك من بنى الحكم بن أبى العاص وإليه ينسب بنو مروان، وهو ممن خرج إلى البصرة مع طلحة والزبير وعائشة يطالبون بدم عثمان. دعى لنفسه بالخلافة بعد وفاة يزيد فبايعه أهل الأردن [٦٤هـ] ودخل الشام فأحسن تدبيرها ، وخرج إلى مصر فولى عليها ابنه عبد الملك ثم عاد إلى دمشق ، ت[٦٥هـ - ٦٨٥م] . انظر : الإصابة لابن حجر (٨٣٢٠) ، أسد الغابة (٣٤٨/٤) ، الطبرى (٣٤/٧) .

(٢) الكلف : شدة العشق والولع .

النفس، وكانت لى جذعة من الإبل[1]، كنت أستعين بها على قوام حالى وكفاية أودى[2]، فأصابتنا سنة أذهبت الخف والحافر ، فبقيت لا أملك شيئا ، فلما قل مابيدى ، وذهب مالى ، وفسد حالى، بقيت مهانا ثقلا على الذى يألفنى،وأبعدنى من كان يشتهى قربى وأزور من لا يرغب فى زيارتى.

فلما علم أبوها مابى من سوء الحال وشر المآل أخذها منى ، وجحدنى، وطردنى ، وأغلظ على ، فأتيت إلى عاملك : مروان بن الحكم راجيا لنصرتى ؛ فلما أحضر أباها وسأله عن حالى قال : ما أعرفه قط ، فقلت : أصلح الله الأمير إن رأى أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها ، فعل، فبعث خلفها فلما حضرت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب ، فصار لى خصما وعلى منكرا وأظهر لى الغضب وبعث بى إلى السجن فبقيت كأنما خررت من السماء أو استهوت بى الريح فى مكان سحيق ، ثم قال لأبيها : هل لك أن تزوجنيها على ألف دينار وعشرة آلاف درهم ، وأنا ضامن خلاصها من هذا الأعرابى، فرغب أبوها فى البذل وأجابه إلى ذلك . فلما كان من الغد بعث لىَّ وأحضرنى ونظر إلى كالأسد الغضبان ، وقال : طلق سعاد ، فقلت : لا، فسلط على جماعة من غلمانه فأخذونى يعذبوننى بأنواع العذاب ، فلم أجد لى بدا من طلاقها ، ففعلت فأعادنى إلى السجن فمكثت فيه إلى أن انقضت عدتها فتزوجها وأطلقنى وقد أتيتك راجيا وبك مستجيرا وإليك ملتجئا وأنشد يقول :

فى القلب منى غرام للنار فيه استعار

---

(١) جَذَعة من الإبل : هى صغار الإبل ، وجمعها جذاع .

(٢) أودى : الكد والتعب .

والجسم مرمى بسهم ... فيه الطبيب يحار
وفي فؤادي جمر ... والجمر فيه شرار
والعين تهطل دمعا ... فدمعها مدرار
وليس إلا بربي ... وبالأمير انتصار

قال : ثم اضطرب واصطكت لهاته وصار مغشيا عليه ، وأخذ يتلوى كالحية. قال : فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده قال : تعدى ابن الحكم فى حدود الدين ، وظلم واجترأ على حرم المسلمين ثم قال : لقد أتيتنى يا أعرابى بحديث لم أسمع بمثله قط ، ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب إلى مروان بن الحكم كتابا يقول فيه" إنه قد بلغنى أنك تعديت على رعيتك فى حدود الدين وينبغى لمن كان واليا أن يكف بصره عن شهواته ، ويزجر نفسه عن لذاته ، ثم كتب بعده كلاما طويلا اختصرته وأنشد يقول :

وليت أمرا عظيما لست تدركه ... فاستغفر الله من فعل امرئ زانى
وقد أتانا الفتى المسكين منتحبا ... يشكو إلينا بث ثم أحزان[1]
أعطى الإله يمينا لا يكفرها ... شيء وأبرأ من دينى وأيمانى
إن أنت خالفتنى فيما كتبت به ... لأجعلنك لحما بين عقبان
طلق سعاد وعجلها مجهزة ... مع الكميت ومع نصر بن ذبيان

ثم طوى الكتاب وطبعه ، واستدعى بالكميت ، ونصر بن ذبيان ، وكان يستنهضهما فى المهمات لأمانتهما ، فأخذا الكتاب وسارا حتى قدما المدينة ، فدخلا على مروان بن الحكم وسلما عليه وسلما إليه الكتاب ، وأعلماه بصورة الحال ، فصار مروان يقرأ ويبكى ثم قام إلى سعاد ،

---

(١) البث : الحال .

وأعلمها ولم يبيعه مخالفة معاوية ، فطلقها بمحضر الكميت ونصر بن ذبيان ، وجهزهما وصحبتهما سعاد ، ثم كتب مروان كتابا يقول فيه هذه الأبيات :

لا تعجلن أمير المؤمنين فقد ... أوفى بنذرك في سر وإعلان
وما أتيت حراما حين أعجبني ... فكيف أدعى باسم الخائن الزاني
أعذر فإنك لو أبصرتها لحرت ... فيك الأماني عن تمثال إنسان
فسوف يأتيك شمس ليس يدركها ... عند الخليفة من إنس ومن جان

ثم ختم الكتاب ، ودفعه إلى الرسولين ، وسارا حتى وصلا إلى معاوية، وسلما إليه الكتاب ، فقرأه وقال : لقد أحسن في الطاعة وأطنب ذكر الجارية ، ثم أمر بإحضارها فلما رآها رأى صورة حسناء لم ير أحسن منها ولا مثلها في الحسن والجمال والقد والاعتدال ، فخاطبها فوجدها فصيحة اللسان حسنة البيان فقال : عليّ بالأعرابي فأتيّ به وهو في غاية من تغير الحال فقال : يا أعرابي هل لك عنها من سلوة وأعوضك عنها ثلاث جوار نهد أبكار كأنهن الأقمار مع كل جارية ألف دينار، وأقسم لك في بيت المال كل سنة ما يكفيك وما يغنيك ، قال : فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شهق شهقة ظن معاوية أنه مات بها ، فقال له معاوية : ما بالك بشر بال وسوء حال ؟ فقال الأعرابي : استجرت بعدلك من جور ابن الحكم، فبمن استجير من جورك وأنشد يقول :

لا تجعلني فداك الله من ملك ... كالمستجير من الرمضاء بالنار
أردد سعاد على حيران مكتئب ... يمسي ويصبح في هم وتذكار
أطلق وثاقي ولا تبخل علي بها ... فإن فعلت فإني غير كفار

ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتنى الخلافة ما أخذتها دون سعاد وأنشد يقول :

أبى القلب إلا حب سعدى وبغضت ... على نساء مالهن ذنوب

فقال له معاوية : إنك مقر بأنك طلقتها ومروان مقر بأنه طلقها ، ونحن نخيرها فإن اختارت سواك تزوجناها ، وإن اختارتك حولناها إليك ، قال : افعل ، فقال : ما تقولين يا سعادى أيما أحب إليك أمير المؤمنين فى عزه وشرفه وقصوره وسلطانه وأمواله وما أبصرتيه عنده ، أو مروان بن الحكم فى تعسفه وجوره ،أو هذا الأعرابى فى جوعه وفقره فأنشدت تقول:

هذا وإن كان فى جوع وإضرار ... أعز عندى من قومى ومن جارى

وصاحب التاج أو مروان عامله ... وكل ذى درهم عندى ودينار

ثم قالت : والله يا أمير المؤمنين ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ، ولا لغدرات الأيام وإن له صحبة قديمة لا تنسى ومحبة لا تبلى ، وأنا أحق من يصبر معه فى الضراء كما تنعمت معه فى السراء ، فتعجب معاوية من عقلها ومودتها له وموافاتها فدفع لها عشرة آلاف درهم ، ودفع مثلها للأعرابى، وأخذها وانصرف ، انتهى .

[١٠] ومن ثمرات الأوراق عن الأجوبة الهاشمية وبلاغتها فى المحل الرفيع[1]: فمن أجل ذلك أنه اجتمع عند معاوية عمرو بن

---

(١) صاحب ثمرات الأوراق ، هو : أبو بكر بن عبد الله الحموى الحنفى ، يعرف بابن حجة . [٧٦٧هـ - ٨٣٧هـ] انظر : ثمرات الأوراق ص٥٢ .

العاص[1] رضي الله عنه، والوليد بن عقبة[2]، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة، فقالوا: يا أمير المؤمنين ابعث إلى الحسن بن على رضى الله عنهما[3] يحضر لدينا ، قال لهم : ولم ؟ قالوا : كى نوبخه ونعرفه أن أباه قتل عثمان، فقال لهم معاوية : إنكم لن تطيقوه ولن تنتصفوا منه ولا تقولوا له شيئا الا كذبكم ، ولا يقول لكم ببلاغته شيئا إلا صدقه الناس ،فقالوا : أرسل إليه فإنا نكفيه فأرسل له معاوية.

فلما حضر قال : يا حسن إنى لم أرسل إليك ولكن هؤلاء أرسلوا إليك فاسمع مقالتهم ، فقال الحسن رضي الله عنه : فليتكلموا ونحن نسمع ، فقام عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا

---

(١) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد : فارس شجاع ، صاحب رأى وذكاء ، أسلم قبل الفتح [٨هـ] أمره النبى ﷺ على سرية نحو الشام ، ثم ولاه على عمان ، وولاه عمر على فلسطين والأردن . فتح مصر أيام عمر . سار إلى معاوية بالشام بعد مقتل عثمان وشهد صفين ، وكان له دور فى التحكيم بين معاوية وعلىّ ، ت[٤٣ هـ - ٦٦٣هـ] . انظر : الاستيعاب (١١٨٤/٣)

(٢) الوليد بن عقبة بن أبى معيط الأموى : هو أخو عثمان بن عفان لأمه ، أسلم يوم فتح مكة ، ونزلت فيه قوله تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق ...﴾ الآية . وشهد عليه جماعة عند عثمان بن عفان بشرب الخمر فعزله عن الكوفة وحده . واعتزل الفتنة بين على ومعاوية ، ولكنه رثى عثمان وحرض معاوية على الأخذ بثأره ومات بالرقة ، ت[٦١هـ - ٦٨٠م] .

(٣) الحسن بن على ، سبط النبى ﷺ وابن فاطمة وعلىّ . روى عن النبى ﷺ أحاديث ، واشتهر بحلمه وورعه وكرمه ، وكان مزواجا مطلاقا . وولى الخلافة بعد استشهاد أبيه علىّ رضي الله عنه ثم تنازل عن الحكم لمعاوية درءاً للفتنة ، وهو أشهر من أن يعرف به .

حسن هل تعلم أن أباك أول من أثار الفتنة ، وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله تعالى به ، ثم قام الوليد بن عقبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا بنى هاشم كنتم أصهار عثمان بن عفان ، فنعم الصهر كان لكم لقربه من رسول الله ﷺ يقربكم ويفضلكم ثم بغيتم عليه وقتلتموه ، وقد أردنا قتل أبيك فأنقذنا الله منه ، ولو قتلناه ما كان علينا ذنب ، ثم قام عتبة بن أبى سفيان، فقال : يا حسن إن أباك قد تعدى على عثمان فقتله حسدا على الملك والدنيا فسلبهما الله منه ولقد أردنا قتل أبيك حتى قتله الله تعالى ، ثم قام المغيرة بن شعبة وقال : كلاما سبا لعلى وتعظيما لعثمان .

فقام الحسن رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : بك أبدأ يا معاوية لم يشتمنى هؤلاء ، ولكن أنت تشتمنى بغضا وعداوة ومخالفة لجدى رسول الله ﷺ . ثم التفت إلى الناس وقال : أنشدكم الله إن الذى شتمه هؤلاء أما كان أبى وهو أول من آمن بالله وصلى إلى القبلتين وأنت يا معاوية كافر تشرك بالله، وكان مع أبى لواء النبى ﷺ يوم بدر ولواء المشركين مع معاوية ، ثم قال : أنشدكم الله تعالى أما كان معاوية يكتب لجدى صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه يوما فرجع الرسول ، وقال : هو يأكل ، فرد إليه الرسول ثلاث مرات ، كل ذلك يقول : هو يأكل ، فقال النبى ﷺ: «لا أشبع الله بطنك ، يا معاوية»[1]. أما تعرف ذلك من بطنك، ثم قال: وأنشدكم الله أما تعلمون أن معاوية كان يقود بأبيه وهو على جمل وأخوه هذا يسوقه ، فقال رسول الله ﷺ ما قال وأنت تعلم ذلك هذا كله لك يا معاوية . وأما أنت يا عمرو، فقد تنازعك خمسة من قريش فغلب

---

(١) الحديث : أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب ٢٥ رقم ٩٥ .

عليك شبه الأيهم ، وهو أقلهم حسبا وأسوأهم منصبا ، ثم قمت وسط قريش ، فقلت: إنى شانئ[1] محمد بثلاثين بيتا من الشعر ، فقال النبى ﷺ: «اللهم إنى لا أحسن الشعر اللهم إلعن عمرو بن العاص بكل بيت لعنة»[2]. ثم انطلقت إلى النجاشى بما عملت وعلمت، فكذبك وردك خائبا ، فأنت عدو بنى هاشم فى الجاهلية والإسلام، فلا نلومك على بغضك الآن . وأما أنت يا ابن أبى معيط فكيف نلومك على سبك لأبى، وقد جلدك أبى فى الخمر ثمانين جلدة[3]، وقتل أباك صبرا بأمر جدى ، وقتله جدى بأمر ربى، ولما قدمه للقتل قال : من للصبية بعدى يا محمد ؟ فقال جدى: لهم النار فلم يكن لهم عند جدى غير النار ، ولم يكن لهم عند أبى غير السوط والسيف[4]. وأما أنت يا عتبة فكيف تعيب أحداً بالقتل ولا تعيب نفسك ، فلم لا قتلت الذى وجدته على فراشك مضاجعا لزوجتك ، ثم أمسكتها بعد أن بغت ، وأما أنت يا أعور ثقيف ففى أى شىء تسب عليا أفى بعده من رسول الله ﷺ أم لحكم جائر فى رعيته فى الدنيا ، فإن قلت : فى شىء من ذلك كذبت وكذبك الناس ، وإن زعمت أن عليا قتل عثمان ، فقد كذبت وكذبك الناس ، وإنما مثلك كمثل بعوضة وقعت على نخلة فقالت لها : استمسكى فإنى أريد أن أطير فقالت لها النخلة: ما علمت بوقوعك فكيف يشق على طيرانك ، فكيف يا أعور ثقيف يشق علينا سبك ثم نفض ثيابه وقام .

---

(١) شَانِئُ : هاجٍ .

(٢) انظر : تهذيب تاريخ ابن عساكر (١٠٨/٧) .

(٣) انظر : الإصابة (٦٠١/٣) .

(٤) انظر : الإصابة لابن حجر العسقلانى (٦٠١/٣ رقم٩١٤٩) .

فقال لهم معاوية : ألم أقل لكم لا تنتصفون منه فوالله لقد أظلم على البيت حتى قام .

[١١] وروى : أى معاوية رضي الله عنه خرج عاما حاجا فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالا جزيلة ولم يحضر الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما، فلما حضر قال له معاوية : مرحبا مرحبا برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا ، فقال الحسن رضي الله عنه : كيف ينفد ما عندك ، وخراج الدنيا يجيء إليك فقال له معاوية : قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند ، فقال الحسن : قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

[١٢] [وقيل] : إن معاوية رضي الله عنه جلس يوما بين أصحابه إذ أقبلت قافلتان من البرية فقال لبعض من كان بين يديه : انظروا هؤلاء القوم وائتونى بأخبارهم ، فمضوا وعادوا ، وقالوا : يا أمير المؤمنين إحداهما من اليمن والأخرى من قريش ، فقال : ارجعوا إليهم ودعوا قريشا يأتوننا ، وأما أهل اليمن فينزلون فى أماكنهم إلى أن نأذن لهم فى الدخول فلما دخلت قريش سلم عليهم وقربهم ، وقال : أتدرون يا أهل قريش لم أخرت أهل اليمن وقربتكم ؟ قالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : لأنهم لم يزالوا يتطاولون علينا بالفخار ويقولون ما ليس فيهم ، وإنى أريد إذا دخلوا غدا وأخذوا أماكنهم من الجلوس أن أقوم فيهم نذيرا وألقى عليهم من المسائل ما أقل به إكرامهم وأرخص به مقامهم فإذا دخلوا وأخذوا أماكنهم من الجلوس وسألوا عن شيء فلا يجيبهم أحد غيرى .

قال الراوى : وكان المقدم عليهم رجلا يقال له الطرماح بن الحكم الباهلى[1]، فأقبلَ على اصحابه وقال : أتدرون يا أهل اليمن لم أخركم ابن هند وقدم قريشا ؟ قالوا: لا، قال : لأنه فى غداة غد يقوم فيكم نذيرا ويلقى عليكم من المسائل ما يقل به إكرامكم ويرخص به مقامكم ، فإذا دخلتم عليه وأخذتم أماكنكم من الجلوس وسألكم عن شىء فلا يجيبه أحد غيرى، فلما كان من الغد دخلوا عليه وأخذوا أماكنهم ، فنهض معاوية قائما على قدميه ، وقال : أيها الناس من تكلم بالعربية ، قبل العرب وعلى من أنزلت العربية ، فقام الطرماح وقال : نحن يا معاوية ، ولم يقل يا أمير المؤمنين ، فقال : لماذا ؟ فقال : لأنه لما نزلت العرب ببابل وكانت العبرانية لسان الناس كافة أرسل الله تعالى العربية على لسان يعرب بن قحطان الباهلى[2]، وهو جدنا فقرأ العربية وتداولتها قومه من بعده إلى يومنا هذا ، فنحن يا معاوية عرب بالجنس وأنتم عرب بالتعليم فسكت معاوية زمانا ثم رفع رأسه، وقال: أيها الناس من أقوى العرب إيمانا ومن شهد له بذلك ، فقال الطرماح : نحن يا معاوية، قال : ولم ؟ قال : لأن الله بعث محمداً ﷺ فكذبتموه وسفهتموه وجعلتموه مجنونا فآويناه ونصرناه فأنزل الله ﴿**والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا**﴾ [الأنفال : ٧٤] وكان

---

(١) الطرماح بن حكيم بن الحكم الباهلى : شاعر إسلامى ، فحل ، من طيىء ، ولد ونشأ فى الشام ، وانتقل إلى الكوفة ، واتصل بخالد بن عبد الله القسرى ، وكان يكرمه ويستجيد شعره ، وكان هجاءا، معاصرا وصديقا للكميت ، ت[١٢٥هـ = ٧٤٣م] .

(٢) يعرب بن قحطان الباهلى : أحد ملوك العرب فى جاهليتهم الأولى ، من الخطباء والحكماء والشجعان، وهو أبو قبائل اليمن كلها ، وبنو العرب العاربة . قال وهب بن منبه : يعرب أول من قال الشعر ووزنه ومدح ووصف .

النبى ﷺ محسنا لنا متجاوزا عن سيئاتنا فلم لم تفعل أنت كذلك كأنك خالفت رسول الله ﷺ. قال : فسكت زمانا ثم رفع رأسه وقال : أيها الناس من أفصح العرب لسانا ومن شهد له بذلك ؟ قال الطرماح : نحن يا معاوية، قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن امرأ القيس بن حجر الكندى[1] منا قال فى بعض قصائده:

يطعمون الناس غبا ... فى السنين الممحلات
فى جفان كالجوابى ... وقدور راسيات

وقد تكلم بألفاظ جاء مثلها فى القرآن وشهد له رسول الله ﷺ بذلك . قال: فسكت معاوية ، زمانا ، وقال : أيها الناس من أقوى العرب شجاعة وذكرا ومن شهد له بذلك قال الطرماح : نحن يا معاوية ، قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن منا عمرو بن معد يكرب الزبيدى ،كان فارسا فى الجاهلية وفارسا فى الإسلام وشهد له بذلك النبى ﷺ فقال له معاوية : وأين أنت وقد أتى به مصفدا بالحديد ، فقال له الطرماح : ومن أتى به ؟ قال معاوية : أتى به علىّ ، قال الطرماح : والله لو عرفت مقداره لسلمت إليه الخلافة ولا طمعت فيها أبداً . فقال له معاوية : أتحجنى يا عجوز اليمن؟ قال : نعم أحجك يا عجوز مضر ، لأن عجوز اليمن بلقيس آمنت بالله وتزوجت بنبيه سليمان بن داود عليهما السلام ، وعجوز مضر ، جدتك التى قال الله فى حقها ﴿**وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل**

---

(١) امرؤ القيس بن حجر الكندى : أشهر شعراء العرب على الإطلاق ، وأحد أصحاب المعلقات، يمانى الأصل،ولد بنجد وكان أبوه ملك أسد وغطفان،ت[٨٠ق هـ-٥٤٥م]

من مسد﴾ [المسد : ٣] قال : فسكت معاوية زمانا ، ثم رفع رأسه وقال : جزاك الله خيرا من صاحب ،ووفر عقلك ،ورحم سلفك ،وأعطاه وأحسن إليه،انتهى .

[١٣] **قال الراوى** : وخطب معاوية يوماً فقال : أيها الناس إن الله تعالى قال: ﴿**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم**﴾ [الحجر : ٢١] . فعلام تلومننى إذا قصرت عنكم فى عطاياكم ؟ فقال له الأحنف بن قيس[١]: إنا والله ما نلومك فيما فى خزائن الله ولكن وضعت يدك على ما أنزل الله من خزائنه فجعلته فى خزائنك وحلت بيننا وبينه .

[١٤] **ومما يروى عن الشعبى**[٢] **قال**[٣] : استأذنت سودة بنت عمارة بن الأسد[٤] على معاوية بن أبى سفيان ، فأذن لها . فلما دخلت عليه قال لها يا بنت الأسد ألست القائلة :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الأقران

---

(١) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين : أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل ، العالم النبيل ، أبو بحر. كان من قواد جيش على بن ابى طالب يوم صفين .قال ابن سعد : كان ثقة ، مأمونا ، قليل الحديث ، وكان معاوية يعظمه ويجله . ويقول : هذا الذى إذا غضب غضب له مئه ألف لايدرون فيم غضب ، ت[٧٢هـ = ٦٧١م] .

(٢) الشعبى : عامر بن شراحبيل بن عبد بن ذى كابر ، تابعى ، إمام ، وعلامة عصره ، من المحدثين وكان ممن خرج مع بن الاشعث على الحجاج . استقضاه عمر بن عبد العزيز . وكان يقول ماكتب سوداء فى بيضاء ولاحدثنى رجل بحديث إلا حفظته ، ت[١٠٣هـ = ٧٢١م] .

(٣) انظر : العقد الفريد ، لابن عبد ربه (١٠٢/٢) .

(٤) سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية :شاعرة من شواعر العرب ،ذات فصاحة وبيان.

وانصر عليا والحسين ورهطه ... واقعد لهند وابنها بهوان[1]
إن الامام أخا النبي محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمان
وقد الجيوش وسر أمام لوائه ... وارم بأبيض صارم وسنان

قالت : بلى يا معاوية وما مثلى من رغب عن الحق واعتذر . قال : فما حملك على ذلك ؟ قالت : حب عليّ واتباع الحق . قال : والله ما أرى عليك من أثر عليّ شيئا. قالت : أنشدك الله يا معاوية لا تذكر ما مضى . قال : هيهات وما مثلك ومقام أخيك يسبنى وما لقيت من أخيك ، قالت : صدقت يامعاوية لم يكن أخى ذميم المقام ولاحييا،وهو والله كقول الخنساء:

وان صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

وأنا أسألك يا معاوية اعفاءك مما استعفيت به ، قال : قد فعلت فما حاجتك؟ قالت : يا معاوية إنك أصبحت للناس سيدا ولأمورهم واليا ، والله سائلك عن أمرنا وما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من يغرك ويبطش بسلطانك ويحصدنا حصد السنبل ويدرسنا درس العصفر ويسومنا الخسف[2] ويسلبنا الحيل ، هذا ابن أرطأة[3] قدم علينا فقتل رجالى

---

(١) الحسين بن على سبط النبى ﷺ وابن فاطمة وعليّ ، اشتهر بفضله ، وورعه وعبادته . استشهد يوم عاشوراء بكربلاء ، وهو أشهر من أن يعرف به ، ت[٦١هـ - ٦٨٠م].. لهند ، يعنى : هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان وأم معاوية .

(٢) الخَسْف : الذل .

(٣) ابن أرطأة ، هو : بسر بن أرطأة العامرى القرشى ، ولد بمكة قبل الهجرة وأسلم صغيرا، وله حديثان فى مسند أحمد . كان من رجال معاوية بن أبى سفيان ، وجهه

وأخذ مالى، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته فشكرناك وإما أقررته فعرفناك ، فقال لها : أبقولك تهددينى ، هممت أن أحملك على قتب جمل أشرس وأسيرك إليه لينفذ فيك أمره ، فأطرقت وبكت وأنشدت تقول :

صلى الإله على روح تضمنها ... قبر فأصبح فيه الحق مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به بدلا ... فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذاك ؟ قالت : أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه . قال : ولم ؟ قالت : أتيته فى رجل ولاه علينا ولم يكن بيننا وبينه إلا كما بين الغث والسمين فوجدته قائما يصلى ، فلما نظر إلى انفتل من صلاته، ثم قال برأفة ورحمة : ألك حاجة فأخبرته فبكى ، ثم قال : اللهم اشهد على وعليهم إنى لم أولهم وآمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جلد كهيئة ظرف الجواب فكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ [الأعراف:٨٥] ﴿**ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خيرلكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ**﴾ [هود:٨٥،٨٦] إذا قرأت كتابى هذا فاحتفظ بما فى يدك حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام، فأخذته منه وأوصلته إليه فامتثل ورجع عما كان فيه . فقال معاوية: اكتبوا لها برد مالها والعدل فى حالها ، فقالت :ألى خاصة أم

=معاوية إلى المدينة بثلاث آلاف فأخضعها (٣٩هـ) واحتل مكة . وارتكب فظائع من بطشه وقسوته ، وقتل الأطفال وسبى النساء فى اليمن . قال ابن معين : بن أبى أرطأة، رجل سوء . قال ابن حجر : مختلف فى صحبته ، ت[٨٦هـ = ٧٠٥م] .

لى ولقومى ، قال : بلى لك ، قالت : إذاً الفحشاء واللؤم هى والله إما عدلا شاملا ، وإلا فأنا كسائر قومى . قال : اكتبوا لها بحاجتها هى وقومها .

[١٥] [قيل][١] : لما اتصلت ميسون بنت بحدل[٢] بمعاوية رضي الله عنه ، ونقلها من البدو إلى الشام كانت تكثر الحنين على ناسها والتذكر لمسقط رأسها فاستمع عليها ذات يوم فسمعها تنشد وتقول :

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلىَّ من قصر منيف
وأكل كسيرة فى كسر بيتى ... أحب إلىَّ من أكل الصنوف
وأصوات الرياح بكل فج ... أحب إلىَّ من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عينى ... أحب إلىَّ من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولى ... أحب إلىَّ من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب ... أحب إلىَّ من بغل زفوف
وخرق من بنى عمى ضعيف ... أحب إلىَّ من علج عنيف

قال الراوى : فلما سمع معاوية الأبيات قال ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتنى علجا عنيفا[٣].

---

(١) انظر : خزانة الأدب ، للبغدادى (٣/٥٩٣) .

(٢) ميسون بنت بحدل بن أنيف : زوجة معاوية وام يزيد ، شاعرة ، وكانت من البدو . وقال البغدادى فى خزانة الأدب : لما طلقها معاوية قال لها : كنتِ فَبِنْتِ ، فأجابته : ماسررنا إذ كنا ، ولاأسفنا إذ بنا ، ت[٨٠هـ = ٧٠٠م] .

(٣) عِلْج عنيف : الحمار الوحشى السمين .

حكاية أجنبية عن المقام

[١٦] **يحكى**: أن بهراما[١] لما ولى الملك بعد أبيه ، أقبل على اللهو واللذات والتنزه والصيد ، ولا يفكر فى ملكه ولا فى رعيته ، حتى خرجت البلاد عن يده ، وخربت فى أيامه ، وقلت العمارة وخلت بيوت الأموال . فلما كان فى بعض الأيام ركب إلى بعض منازهه وصيده ، وهو يسير نحو المدائن وكانت ليلة مقمرة فدعا بالموبذان -وهو عند المجوس كالحاخام عند اليهود والقسيس عند النصارى- لأمر خطر فجعل يحادثه فتوسطا فى سيرهما بين خربات كانت من أمهات الضياع قد خربت فى مدة ملكه لا أنيس فيها إلا البوم ، وإذا ببوم يصيح وصاحبته تجاوبه من تلك الخربات ، فقال بهرام: أترى أن أحدا من الناس أعطى فهم لغة هذا الطائر المصوت فى الليل البهيم ؟ فقال الموبذان : أيها الملك أنا ممن خصه الله بذلك .قال : فما يقول هذا الطائر وما يقول الطائر الآخر ؟ فقال الموبذان : هذا بوم ذكر يخطب بومة ، ويقول لها : متعينى بنفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله ويبقى لنا فى هذا العالم عقب يكثرون الترحم علينا ، فأجابت إن الذى تدعوننى إليه فيه الحظ الأكبر والنصيب الأوفر فى العاجل والآجل، إلا أنى أشترط عليك خصالا أن أعطيتها أحبتك إلى ذلك ، فقال لها الذكر: وما تطلبينه منى ؟ قالت : أن تعطينى من خربات أمهات الضياع عشرين قرية مما خربت فى أيام هذا الملك السعيد ، فقال له الملك : فما الذى قال لها الذكر ؟ قال الموبذان :كان من قوله لها : إن دامت أيام هذا الملك السعيد أقطعك منها ألف قرية خراب فما تصنعين . قالت : فى اجتماعنا يحصل ظهور النسل وكثرة الذكر فنقطع لكل ولد من أولادنا ضيعة من

---

(١) بهراما : أحد الملوك الساسانين .

هذه الخربات ، فقال لها الذكر : هذا أسهل أمر سألتنيه وأنا ملىء بذلك ما حيى هذا الملك . فلما سمع الكلام من الموبذن تأثر فى نفسه واستيقظ من نومه وفكر فيما خوطب به ، فنزل من ساعته ونزل بنزوله الناس وخلا بالموبذان ، فقال : أيها القائم بأمر الدين الناصح للملك ، والمنبه عما اغفله من أمور ، واضاعة بلاده ورعيته ماهذا الكلام الذى خاطبتنى به فقد حركت منى ماكان ساكنا ، فقال الموبذان : صادفت من الملك السعيد وقت سعد العباد والبلاد فجعلت الكلام مثلا وموعظة على لسان الطائر عند سؤال الملك اياى عما سأل ، فقال له الملك : أيها الناصح اكشف لى عن هذا الغرض ماالمراد منه ، فقال : أيها الملك إن الأمر لايتم الا بالشريعة والقيام لله بطاعته ولاقوام للشريعة إلا بالملك ، ولاعز للملك إلا بالرجال ، ولاقوام للرجال إلا بالمال ، ولاسبيل للمال إلا بالعمارة ، ولاسبيل للعمارة إلا بالعدل وهو الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب جل وعلا ، وجعل له قيما وهو الملك. فقال الملك : أمّاما وصفت فحق ، فأبن لى عما إليه تقصد، وأوضح لى فى البيان ؟ قال : نعم أيها الملك إنك عمدت إلى الضياع فأقطعتها الخدم وأهل البطالة فعمدوا إلى ماتعجل من غلاتها فاستعجلوا المنفعة، وتركوا العمارة والنظر فى العواقب ومايصلح الضياع وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك ، ووقع الحيف على الرعية وعمار الضياع ، فانحلوا عن ضياعهم ، وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع فى ملك فارس من أطاف بها من الملوك والأمم لعلمهم بانقطاع المواد التى بسببها تستقيم دعائم الملك فلما سمع الملك ذلك أقام فى موضعه ثلاثة أيام وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين ، فانتزعت الضياع من أيدى الخاصة والحاشية وردت إلى أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا فى العمارة وقوى من ضعف منهم ، فعمرت البلاد

بذلك وأخصبت وكثرت الأموال عند الجباة وقويت الجنود وانقطعت مواد الأعداء ، وأقبل الملك يباشر الأمور بنفسه فحسنت سيرته وانتظم ملكه حتى كانت أيامه بعده تُدعى بالأعياد مما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل ، انتهى .

حكاية أخرى أجنبية

[١٧] **عن الأصمعي**[١] **أنه قال** : دخلت البصرة أريد بادية بنى سعد، وكان على البصرة يومئذ خالد بن عبد الله القسرى[٢]، فدخلت عليه يوما فوجدت قوما متعلقين بشاب ذى جمال وكمال وأدب ظاهر بوجه زاهر حسن الصورة طيب الرائحة جميل البزة[٣] ، عليه سكينة ووقار فقدموه إلى خالد فسألهم عن قصته فقالوا : هذا لص أصبناه البارحة فى منازلنا ، فنظر إليه فأعجبه حسن هيئته ونظافته فقال : خلوا عنه ثم أدناه منه وسأله عن

---

(١) الأصمعى : أبو سعيد عبد الملك بن قريب ابن عبد الملك ، الإمام ، العلامة الحافظ ، حجة الأدب ، لسان العرب ، اللغوى الإخبارى ، أحد الأعلام . قال الشافعى فيه : ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعى . وأثنى أحمد بن حنبل على الأصمعى فى السنة . وكان كثير الطواف فى البوادى ، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء ، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة ، ت[٢١٦هـ = ٨٣١م].

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسرى : أمير العراقين ، وأحد خطباء العرب وأجوادهم ، يمانى الأصل ، من أهل دمشق . ولى مكة (٨٩هـ) للوليد بن عبد الملك، وولاه هشام الكوفة والبصرة (١٠٥هـ) إلى أن عزله هشام (١٢٠هـ) وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى ، وأمره أن يحاسبه ، فسجنه يوسف وعذبه بالحيرة ، ثم قتله ، ت [١٢٦هـ =٧٤٣م] .

(٣) البزة : الثياب .

قصته ، فقال :إن القول ماقالوه والأمر على ماذكروه، فقال له : ماحملك على ذلك وأنت فى هيئة جميلة وصورة حسنة ؟ قال : حملنى الشر فى الدنيا وبذا قضى الله سبحانه وتعالى ، فقال له خالد: ثكلتك أمك أما كان لك فى جمال وجهك وكمال عقلك وحسن أدبك زاجر لك عن السرقة . قال: دع عنك هذا أيها الأمير وأنفذ ما أمرك الله تعالى به ، فذلك بما كسبت يداى وما الله بظلام للعبيد . فسكت خالد ساعة يفكر فى أمر الفتى ثم أدناه منه وقال له : إن اعترافك على رءوس الأشهاد قد رابنى وأنا ماأظنك سارقا، وأن لك قصة غير السرقة فأخبرنى بها ، فقال : أيها الأمير لايقع فى نفسك سوى مااعترفت به عندك وليس لى قصة أشرحها لك ، إلا أنى دخلت دار هؤلاء فسرقت منها مالاً فأدركونى وأخذوه منى وحملونى إليك ، فأمر خالد بحبسه وأمر مناديا ينادى فى البصرة : ألا من أحب أن ينظر إلى عقوبة فلان اللص وقطع يده فليحضر من الغد استقر الفتى فى الحبس ووُضع فى رجليه الحديد ، تنفس الصعداء ثم أنشد يقول :

هددنى خالد بقطع يدى ... إن لم أبح عنده بقصتها
فقلت هيهات أن أبوح بما ... تضمن القلب من محبتها
قطع يدى بالذى اعترفت به ... أهون للقلب من فضيحتها

فسمعه الموكلون ، فأتوا خالدا وأخبروه بذلك ، فلما جن الليل أمر بإحضاره عنده فلما حضر استنطقه ، فرآه أديبا عاقلا لبيبا ظريفا فأعجب به وأمر له بطعام فأكلا وتحادثا ساعة ؛ ثم قال له خالد : قد علمت أن لك قصة غير السرقة فإذا كان غدا وحضر الناس والقضاة وسألتك عن السرقة فأنكرها واذكر فيها شبهات تدرأ عنك القطع فقد قال رسول الله ﷺ :

«ادرؤوا الحدود بالشبهات»[1] . ثم أمر به إلى السجن فلما أصبح الناس لم يبق بالبصرة رجل ولا امرأة إلا حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى ، وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم ثم دعا بالقضاة وأمر بإحضار الفتى ، فأقبل يحجل فى قيوده ولم يبق أحد من النساء إلا بكى عليه ، وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب فأمر بتسكيت الناس ، ثم قال له خالد ، إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم فما تقول ؟ قال : صدقوا أيها الأمير، دخلت دارهم وسرقت مالهم قال خالد : لعلك سرقت دون النصاب .قال : بل سرقت نصابا كاملا . قال : فلعلك سرقته من غير حرز مثله قال : بل من حرز مثله. قال : فلعلك شريك القوم فى شئ منه . قال: بل هو جميعه لهم لاحق لى فيه ، فغضب خالد وقام إليه بنفسه وضربه على وجهه بالسوط ، وقال متمثلا بهذا البيت :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا

ثم دعا الحلاد ليقطع يده ، فحضر وأخرج السكين ومد يده ووضع عليه السكين فبرزت جارية من صف النساء وعليها آثار وسخ فصرخت ورمت بنفسها عليه ؛ ثم أسفرت عن وجه كأنه البدر، وارتفع للناس ضجة عظيمة كاد أن تقع منها فتنة ؛ ثم نادت بأعلى صوتها ناشدتك الله أيها الأمير لاتعجل بالقطع حتى تقرأ هذه الرقعة ثم دفعت إليه رقعة ، ففضها خالد ، فإذا هى مكتوب فيها :

---

(١) الحديث : أخرجه البغدادى فى تاريخه (٣٠٣/٩) والزيلعى فى نصب الراية (٣٣٣/٣) بلفظه . انظر : الترمذى (١٤٢٤) والبيهقى (٢٣٨/٨) بلفظ : « ادرؤوا الحدود عن المسلمين» .

أخـالد هـذا مسـتهام متيـم رمتـه لحـاظى مـن قسـى الحمـالق
فأصماه سهم اللحظ منى فقلبه حليف الجوى من دائه غير فائق
أقر بما لم يقترفه لأنه رأى ذاك خيرا من هتيكة عاشق
فمهلا على الصب الكئيب لأنه كريم السجايا فى الهوى غير سارق[1]

فلما قرأ الأبيات ، تنحى وانعزل عن الناس ، وأحضر المرأة ، ثم سألها عن القصة فأخبرته أن هذا الفتى عاشق لها وهى له كذلك وأنه أراد زيارتها وأن يعلمها بمكانه فرمى بحجر إلى الدار، فسمع أبوها وأخواتها صوت الحجر فصعدوا إليه ، فلما أحس بهم جمع قماش البيت كله وجعله صرة ، فأخذه وقالوا : هذا سارق ثم أتوا به إليك فاعترف بالسرقة وأصر على ذلك حتى لايفضحنى بين إخوتى وهان عليه قطع يده لكى يستر علىَّ ولايفضحنى ، كل ذلك لغزارة مروءته وكرم نفسه فقال خالد : إنه خليق بذلك : ثم استدعى الفتى إليه وقبل مابين عينيه وأمر بإحضار أبا الجارية ، وقال له : ياشيخ إنا كنا عزمنا على إنفاذ الحكم فى هذا الفتى بالقطع ، وإن الله عصمنى من ذلك وقد أمرت له بعشرة آلاف درهم لبذله يده وحفظه لعرضك وعرض ابنتك وصيانته لكما من العار وقد أمرت لابنتك بعشرة آلاف درهم وأنا أسألك أن تأذن لى فى تزويجها منه . فقال الشيخ: قد أذنت أيها الأمير لك بذلك . قال : فحمد الله وأثنى عليه وخطب خطبة حسنة وقال للفتى قد زوجتك هذه الجارية فلانة الحاضرة بإذنها ورضاها وإذن أبيها على هذا المال وقدره عشرة آلاف درهم ، فقال : قبلت منك هذا التزويج وأمر بحمل المال إلى دار الفتى مزفوفا فى الصوانى وانصرف الناس مسرورين ولم يبق أحد فى سوق البصرة إلا نثر عليهما اللوز والسكر

---

(١) الصَب : العاشق .

حتى دخلا منزلهما مسرورين مزفوفين قال الأصمعى : فما رأيت يوما أعجب منه أوله بكاء وترح[1]وآخره سرور وفرح .

وهذه حكاية تشابه ماتقدم :

[١٨] **قال حماد الراوية**[2] :كنت عند جعفر بن سليمان بالبصرة إذ أتى بشاب حسن الوجه ومعه جارية كأنها قضيب بان . فقال صاحب الشرطة : أصلح الله الأمير إنى وجدت هذا وهذه مجتمعين فى خلوة وليس لها بمحرم . فقال جعفر للفتى : ماتقول ؟ فقال : صدق ولقد طال والله غرامى بها منذ ثلاث سنين والله ما أمكننى الخلوة بها إلا فى هذا الوقت وأنشد يقول :

تمنيت من ربى أفوز بقربها ... فلما تهيأ لى المنى عاقه العسر
فوالله بل والله ماكان ريبة ... وماكان إلا اللفظ والضحك والبشر
فدونكم جلدى ولاتجلدونها ... فكم من حرام كان من دونه ستر

قال : فجعلت الجارية تبكى بكاء شديدا فقال لها : وأنت لم تبكين؟ فقالت : والله شفقة مما حل بنا وكيف احتلت حتى خرجت وكيف بلينا بهذه البلية . قال : أتحبينه قالت : فلم غررت بنفسى ! قال لها : أنت حرة أم مملوكة ؟ قالت : بل مملوكة فأمرها فدخلت الدار وأحضر مولاها

---

(١) تَرَحَ ، جمع أتراح : الحزن والغم .

(٢) حماد بن سابور بن المبارك ، أبو القاسم : أول من لقب بالرواية ، وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ، أصله من الديلم ، ومولده بالكوفة، وهو الذى جمع المعلقات السبع ، ت [١٥٥هـ = ٧٧٢م] . انظر : وفيات الأعيان (١٦٤/١) ، لسان الميزان (٣٥٢/٢) .

فاشتراها منه بمائتي دينـار وأعتقهـا وزوجهـا للفتـى ووهـب لـه مائـة دينـار وكساها فأنشد الفتى يقول :

لقـد جـدت يـابن الأكرميـن بنعمـة جمعـت بهـا بيـن المحبيـن فـى سـتر
فلا زلت بالإحسـان كهفـا وملجـأ وقد حل ما قد كان منك عن الشكـر

قال فضحك وأمر لهما بجائزة وانصرفا مسرورين أ هـ .

٢- فصل

فى أيام دولة عبد الملك بن مروان[١]

وهو أول من تسمى عبد الملك فى الإسلام وكان يلقب برشح الحجر ذكره فى حياة الحيوان[٢] .

[١٩] وذكر محمد بن واسع الهيتى أن عبد الملك بن مروان بعث كتابا إلى الحجاج بن يوسف[٣] يقول فيه:"بسم الله الرحمن الرحيم إلى

---

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم أبو الوليد الأموى : من أعاظم خلفاء بنى أمية ودهاتهم. نشأ فى المدينة فقيها واسع العلم ، متعبدا ، ناسكا . شهد يوم الدار مع أبيه، واستعمله معاوية على المدينة وهو ابن ستة عشرة عاما . وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه [٦٥هـ] وضبط أمورها وظهر بمظهر القوة ، فكان جبارا على معانديه . ونقلت فى أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية ، وضبطت الحروف بالنقط والحركات. وهو أول من سك الدنانير فى الإسلام . قال الشعبى : ما ذاكرت أحدا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، ت [٨٦هـ - ٧١٥م] . انظر : الكامل لابن الأثير (١٩٨/٤) ، الطبرى (١٥٦/٨) .

(٢) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (٩٥/١) .

(٣) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى : قائد ، داهية ، سفاك ، خطيب . ولد ونشأ بالطائف فى الحجاز ، لحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان فى عديد شرطته ثم مازال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره ، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير فقتله ، وفرق جمعه ، فولاه عبد الملك أمر مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليه العراق ،فتولى قمع الثورة فيها وثبت الإمارة لعبد الملك عليها عشرين سنة ، وله-

الحجاج بن يوسف إذا ورد عليك كتابى هذا وقرأته فسير لى ثلاث جوار مولدات نهداً بكار يكون إليهن المنتهى فى الجمال ، واكتب لى بصفة كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها من المال". فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين ثم أمرهم بما أمر به أمير المؤمنين ، وأمرهم أن يغوصوا فى البلاد حتى يقعوا على الغرض فلم يزالوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا على الغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار نهدٍ بكار مولدات ليس لهن مثيل؛ وكان الحجاج فصيحا فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن وثمنها من المال فوجدهن لايقومن بقيمة وإن ثمنهن ثمن واحدة منهن ؛ ثم كتب كتابا إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه : بعد الثناء الجميل وصلنى كتاب أمير المؤمنين متعنى الله تعالى ببقائه يأمر فيه أن أشترى له ثلاث جوار مولدات نهداً بكار وأن أكتب له بصفة كل واحدة منهن وثمنها : أما الجارية الأولى -أطال الله بقاء أمير المؤمنين- فإنها لطيفة السوالف[1]، عظيمة الروادف ، كحلاء العينين ، حمراء الوجنتين ، قد أنهدت نهداها والتفت فخذاها كأنها ذهب شيب بفضة وهى كما قيل :

بيضاء فى طرفها دعج يزينها كأنها فضة قد شابها ذهب[2]

وثمنها ياأمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم . وأما الجارية الثانية : فإنها فائقة فى الجمال معتدلة القد والكمال ، يشفى السقيم كلامها الرخيم ،

مأثر حسنة . وكان سفاكاً للدماء جباراً روع المسلمين . وأمره معروف ، ت[٩٥هـ - ٧١٤م] .انظر : وفيات الأعيان (١/١٢٣) ، مروج الذهب للمسعودى (٢/١٣٠).

(١) لطيفة السَّوَالِف ، جمع السَّالِفَة : صفحة العنق عند مُعَلَّق القرط .

(٢) دعج : سواد العين مع سعتها .

وثمنها ياأمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم . وأما الجارية الثالثة : فإنها فاترة الطرف ، لطيفة الكف ، عظيمة الردف ، شاكرة للقليل ، مساعدة للخليل، بديعة الجمال كأنها خشف[1] غزال ، وثمنها ياأميرالمؤمنين ثمانون ألف درهم؛ ثم أطنب فى الشكر والثناء على أمير المؤمنين، وطوى الكتاب وختمه ودعا بالنخاسين ، وقال : تجهزوا للسفر بهؤلاء الجوارى لأميرالمؤمنين. فقال أحد النخاسين : أيد الله الأمير إنى رجل كبير وضعيف عن السفر ولى ولد ينوب عنى فتأذن لى أن أجهزه قال : نعم فتجهزوا وخرجوا . ففى بعض مسيرهم نزلوا ليستريحوا فى بعض الأماكن فنامت الجوارى ، فهبت ريح فانكشفت إحداهن وهى الكوفية فظهر نور ساطع ، وكان اسمها مكتوم فنظر إليها ابن النخاس وكان شابا جميلا ففتن بها لساعته فأتاها على غفلة من أصحابنا وجعل يقول :

أمكتوم عينى ما تمل من البكا ... وقلبى بأسهام الأسى يترشق
أمكتوم كم من عاشق قتل الهوى ... وقلبى رهين كيف لا أتعشق

فأجابته تقول :

لو كان حقا ماتقول لزرتنا ... ليلا إذا هجعت عيون الحسد[2]

فلما جن الليل انقض ابن النخاس بسيفه وأتى نحو الجارية ، فوجدها قائمة تنتظر قدومه ، فأخذها وأراد الهرب بها ففطن به أصحابه ، فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسورا معهم إلى أن قدموا على

---

(١) خِشْف : ولد الظبى ، أول ما يولد .

(٢) هجعت : نامت .

عبد الملك. فلما قدموا بالجوارى بين يديه أخذ الكتاب وفتحه وقرأه فوجد الصفة موافقة فى اثنتين ولم توافق فى الثالثة ورأى بوجهها صفرة وهى الجارية الكوفية ، فقال للنخاسين : مابال هذه الجارية لم توافق الصفة التى ذكرها الحجاج فى كتابه وماهذا الاصفرار الذى بها وهذا الانتحال؟ فقالوا ياأمير المؤمنين : نقول وعلينا الأمان ؟ إن صدقتم أمنتم وأن كذبتم هلكتم، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد،فلما قدموه بين أمير المؤمنين وأخبروه بما فعل بكى بكاءاً شديداً وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول:

أمير المؤمنين أتيت رغما ... وقد شدت إلى عنقى يديا
مقرا بالقبيح وسوء فعلى ... ولست بما رميت به بريا
فإن تقتل ففوق القتل ذنبى ... وإن تعف فمن جود عليا

فقال له عبد الملك يافتى ماحملك على مافعلت استخفافا بنا أم هوى للجارية؟ فقال : وحقك ياأمير المؤمنين وعظيم قدرك ماهو إلاهوى بالجارية، فقال هى لك بما أعد لها فأخذ الغلام الجارية بكل ما أعدها أمير المؤمنين من الحلى والجمان وسار بها فرحا مسرورا ، حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا منزلا ليلا فتعانقا فلما أصبح الصباح وأراد الناس الرحيل نبهوهما فوجدا ميتين ، فبكوا عليهما ودفنوهما فى الطريق، ومضى خبرهما إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فبكى عليهما وتعجب من ذلك أهـ.

وهذه حكاية تشابهها فى العشق :

[٢٠] حكى عن عبد الله بن معمر القيسى أنه قال : حججت سنة إلى بيت الله الحرام فلما قضيت حجى عدت لزيارة قبر النبى ﷺ فبينما أنا

ذات ليلة جالس بين القبر والروضة إذ سمعت أنينا عاليا وحنينا باديا فأنصت إليه فإذا هو يقول هذه الأبيات:

أشجاك نوح حمائم السدر ... فأهجن منك بلابل الصدر
أم عز نومك ذكر غانية ... أهدت إليك وساوس الفكر
ياليلة طالت على دنف ... يشكو الغرام وقلة الصبر
أسلمت من يهوى لحر جوى ... متوقدا كتوقد الجمر
فالبدر يشهد أننى كلف ... مغرى بحب شبيهة البدر
ماكنت أحسبنى بها شحنا ... حتى بليت وكنت لا أدرى

قال ثم انقطع الصوت ولم أدر من أين جاءنى فبقيت حائرا ، وإذا به قد أعاد البكاء والحنين وأنشأ يقول هذه الأبيات :

أشجاك من ريا خيال زائر ... والليل مسود الذوائب عاكر
واقتاد مقلتك الهوى برسيسه ... واهتاج مقلتك الخيال الزاهر
ناديت ليلى والظلام كأنه ... يم تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسرى فى السماء كأنه ... ملك ترحل والنجوم عساكر
ياليل طلت على محب ما له ... إلاالصباح مساعد وموازر
فأجابنى مت حتف أنفك ... إن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال : فنهضت عند ابتدائه الأبيات أؤم الصوت فما انتهى لآخر الآبيات إلا وأنا عنده ، فرأيته غلاما ماسال عِذارَه وُقد خرق الدمع وجنتيه خرقين ، فقلت : أنعمت غلاما. فقال : وأنت ، فمن الرجل ؟ قلت : عبد الله بن معمر القيسى . قال : أفلك حاجة ؟ قلت له : كنت جالسا فى الروضة فما راعنى فى هذه الليلة إلا صوتك فبنفسى أفديك ما الذى تجده

قال اجلس فجلست ، قال : أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى غدوت إلىمسجد الأحزاب فبقيت راكعا وساجدا ثم اعتزلت غير بعيد ، فإذا بنسوة يتهادين كالأقمار وفى وسطهن جارية بديعة الجمال كاملة الملاحة فوقفت علىَّ ، وقالت : ياعتبة ماتقول فى وصل من يطلب وصلك ؛ ثم تركتنى وذهبت فلم أسمع لها خبرا ولا وقفت لها على أثر فأنا حيران أتنقل من مكان إلى مكان،ثم صرخ وانكب على الأرض مغشيا عليه؛ ثم أفاق كأنما صبغت ديباجتا خديه بورس ثم أنشد يقول هذه الأبيات :

أراكم بقلبى من بلاد بعيدة ... تراكم ترونى بالقلوب على بعد
فؤادى وطرفى يأسفان عليكم ... وعندكم روحى وذكركم عندى
ولست ألذ العيش حتى أراكم ... ولو كنت فى الفردوس أو جنة الخلد

قال : فقلت له : يا ابن أخى تب إلى ربك واستقل من ذنبك ، فإن بين يديك هول المطلع ، فقال : هيهات ما أنا بسال حتى يؤب القارظان[1]ولم أزل به حتى طلع الفجر فقلت : قم بنا إلى مسجد الأحزاب، فقمنا إليه فجلسنا حتى صلينا الظهر، وإذا بنسوة قد أقبلن وأما الجارية فليست فيهن فقلن ياعتبة ماظنك بطالبة وصلك وكاشفة ما بك قال: ومابالها ؟ قلن : أخذها أبوها وارتحل إلى السماوة ، فسألتهن عن الجارية ،فقلن : هى ريا بنت الغطريف السلمى[2] فرفع رأسه وأنشد يقول:

---

(١) حتى يؤب القَارِظان : هما رجلان يضرب بهما المثل فيمن لم يرجع من ذهابه .

(٢) رَيَّا بنت الغطريف السُّلَميَّة : شاعرة من أهل العصر الأموى ، كانت تسكن بادية السماوة بين الكوفة والشام ، وكان أبوها من أشراف قومه . انظر : أعلام النساء (٤٧٣/١) .

خليلى ريا قد أجد بكروها وسار إلى أرض السماوة عيرها
خليلى إنى قد عييت عن البكا فهل عند غيرى عبرة أستعيرها

فقلت له : ياعتبة إنى وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضا قم بنا إلى مسجد الأنصار فقمنا حتى اشرفنا على مائهم ، فسلمت فأحسنوا الرد ثم قلت : أيها الملأ ماتقولون فى عتبة وأبيه ؟ قالوا: من سادات العرب ، قلت : فإنه رمى بداهية من الهوى فأريد منكم المساعدة إلى السماوة قالوا : سمعا وطاعة ، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بنى سليم فعلم الغطريف بمكاننا ، فخرج مبادرا واستقبلنا وقال : حييتم ياكرام . قلنا: وأنت حييت إنا لك أضياف ، فقال : نزلتم بأكرم منزل ، ثم نادى يامعشر العبيد انزلوا فنزلت العبيد ففرشت الأنطاع[1] والنمارق[2] وذبحت النعم والغنم فقلنا لسنا بذائقين طعامك حتى تقضى حاجتنا ، فقال : وما حاجتكم ؟ قلنا : نخطب ابنتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر العالى المفخر الطيب العنصر، فقال : يا أخى إن التى تخطبونها أمرها إلى نفسها وأنا أدخل وأخبرها ثم نهض مغضبا ودخل إلى ريا ، فقالت: ياأبت مالى أرى الغضب بين عينيك، فقال: ورد على قوم من الأنصار يخطبونك منى ، فقالت : سادات كرام استغفر لهم النبى ﷺ فلمن الخطبة فيهم ؟ قال : لفتى يعرف بعتبة بن الحباب ، قالت : سمعت عن عتبة هذا أنه يفى بما وعد ويدرك ماطلب ، قال: أقسمت لا زوجتك به أبدا . فقد نمى إلىَّ بعض حديثك معه ، قالت:

---

(١) الأنطاع ، جمع نطع : بساط من الجلد يفرد تحت الذبائح .
(٢) النمارق ، جمع نُمْرُقَة : الوسادة الصغيرة يتكأ عليها .

ماكان ذلك ، قال : ولكن أقسمت أنى ماأزوجك به ، قالت :أحسن إليهم فإن الأنصار لايردون ردا قبيحا ، فأحسن الرد ، قال : بأى شئ ، قالت : أغلظ عليهم المهر فإنهم يرجعون، قال : ماأحسن ماقلت : ثم خرج مبادرا فقال : إن فتاة الحى قد أجابت ولكن أريد لها مهر مثلها فمن القائم به ؛ قال عبد الله، فقلت : أنا فقال : أريد لها ألف سوار من ذهب أحمر ، وخمسة آلاف درهم من ضرب هجر ، ومائة ثوب من الأبراد والحبر ، وخمسة أكرشة من العنبر قال : قلت لك ذلك فهل أجبت ؟ قال : أجل ؛ فأنفذ عبد الله نفرا من الأنصار إلى المدينة المنورة فأتوا بجميع ماضمنه ، وذبحت النعم والغنم واجتمع الناس لأكل الطعام ، قال : فأقمنا على هذا الحال أربعين يوما . ثم قال : خذوا فتاتكم فحملناها على هودج وجهزها بثلاثين راحلة من التحف ، ثم ودعنا وانصرف وسرنا حتى إذا بقى بيننا وبين المدينة المنورة مرحلة خرجت علينا خيل تريد الغارة وأحسب أنها من بنى سليم فحمل عليها عتبة بن الخباب ، فقتل عدة رجال وانحرف راجعا وبه طعنة ثم سقط إلى الأرض ، وأتتنا النصرة من سكان تلك الأرض فطردوا عنا الخيل ، وقد قضى عتبة نحبه. فقلنا : واعتبتاه فسمعتنا الجارية تقول : واعتبتاه فألقت نفسها من فوق البعير وانكبت عليه وجعلت تصيح وتقول بحرقة :

تصبرت لا إنى صبرت وإنما ... أعلل نفسى إنها بك لاحقه
ولو أنصفت روحى لكانت إلى الردى ... أمامك من دون البرية سابقة
فما أحد بعدى وبعدك منصف ... خليلا ولانفس لنفس موافقه

ثم شهقت شهقة قضت نحبها ، واحتفرنا لهما قبرا واحدا ووارياهما فى التراب ورجعت إلى ديار قومى ، وأقمت سبع سنين عدت إلى الحجاز،

ووردت المدينة المنورة للزيارة ، فقلت : لأعودن إلى قبر عتبة فأتيت إلى القبر فإذا شجرة عليها عصائب حمر وصفر وخضر ، فقلت : لأرباب المنزل مايقال لهذه الشجرة ؟ فقالوا: شجرة العروسين فأقمت عند القبر يوما وليلة وانصرفت وكان آخر العهد به[1].

ومثل ماتقدم من العشق وماورد فى كتمان الهوى مع تحقق النظر عند إعلانه :

[٢١] **ماحكى عن بعض المعمرين من ذوى النعم ، قال** : بينما أنا فى منزلى إذ دخل على خادم لى ومعه كتاب فقال : رجل بالباب دفع إلى هذا الكتاب ففتحته فإذا فيه شعر:

تجنبك البلاء ونلت خيرا ... ونحاك المليك من الغموم
فعندك لو مننت شفاء نفسى ... وأعضاء ضنين من الكلوم

فقلت عاشق والله ، وقلت للخادم : اخرج وأتنى به فخرج فلم ير أحدا فتعجبت من أمره وأحضرت الجوارى كلهن من يخرج منهن ومن لم يخرج منهن وسألتهن عن ذلك فحلفنى أنهن لايعرفن من حديث هذا الكتاب شيئا ، فقلت : إنى لم أفعل ذلك بخلا بمن يهوى منكن فمن عرفت بحال هذا الفتى فهى هبة منى له بمالها ومائة دينار ، وكتبت جوابه أشكره على ذلك وأسأله قبولها ، ووضعت الكتاب فى جنب البيت ومائة دينار وقلت : من عرف شيئا فليأخذه . فمكث الكتاب والذهب أياما لا

---

(١) انظر : تزيين الأسواق فى أخبار العشاق لداود الأنطاكى ص ١٦٤

يأخذه أحد فغمنى ذلك . قلت : هذا قنع ممن يحبه بالنظر فمنعت من يخرج من جوارى من الخروج فما كان إلا يوم أو بعض يوم إذ دخل على الخادم ومعه كتاب ، وقال : هذا من بعض أصدقائك بعث به إليك فقلت : اخرج وائتنى به فخرج فلم يجده ففتحت الكتاب فإذا فيه :

ماذا أتيت إلى روح معلقة ... عند التراقى وحادى الموت حاديها
حثت حاديها ظلما فجدبها ... فى السير حتى تخلت عن تراقيها
والله لو قيل لى تأتى بفاحشة ... وإن عقباك دنيانا وما فيها
لقلت لا والذى أخشى عقوبته ... ولابأضعافها ماكنت آتيها
لولا الحياء لبحنا بالذى سكنت ... بيت الفؤاد وأبدينا أمانيها

قال فغمنى أمره فقلت للخادم : لايأتينك أحد بكتاب إلا قبضت عليه، قال : وقرب موسم الحاج ، قال : فبينما أنا قد أفضت من عرفة وإذا فتى إلى جانبى على ناقة لم يبق منه إلا الخيال فسلم على فرددت عليه السلام ورحبت به ، فقال : أتعرفنى؟ فقلت : ومانكرك بسوء ، فقال : أنا صاحب الكتابين ، فانكبت عليه فقلت له : يا أخى لقد غمنى أمرك وأقلقنى كتمانك لنفسك ووهبت لك طلبتك ومائة دينار، فقال : بارك الله لك إنما أتيتك مستحلا من نظر كنت أنظره على غير حكم الكتاب والسنة ، فقلت: غفر الله لك وللجارية فسر معى إلى منزلى لأسلمها إليك ومائة دينار ومثلها فى كل سنة ، فقال : لا حاجة لى بذلك فألححت عليه فلم يفعل ، فقلت له : أما إذا أبيت فعرفنى من هى من جوارى لأكرمها من أجلك ماحييت فقال ماكنت لأسميها لأحد وودعنى وانصرف وكان آخر العهد به، انتهى.

ونعود إلى الكلام عَلى ماوقع فى زمان عبد الملك بن مروان

[٢٢] روى : أنه لما ولى الحجاج الحرمين الشريفين حظى عنده إبراهيم بن محمد بن طلحة فلما أراد الحجاج الرجوع إلى الشام إلى عبد الملك بن مروان أوفد معه إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وقال : أتيتك برجل الحجاز فى الشرف والأبوة والفضل والمروءة ياأمير المؤمنين مع ماهو عليه من حسن الطاعة وجميل المناصحة والله لم يكن فى الحجاز له نظير فبالله عليك ياأمير المؤمنين ألا فعلت معه من الخير ماهو مستحقه، فقال عبد الملك : من هو ياأبا محمد ؟ قال له : إبراهيم بن محمد بن طلحة ، قال : ياأبا محمد لقد ذكرتنا بحق واجب ائذن له فى الدخول فلما دخل على عبد الملك أمر بجلوسه فى صدر المجلس ثم قال : إن أبا محمد الحجاج ذكر لنا مانعرفه من كمال مروءتك وحسن نصيحتك فلا تدع فى صدرك حاجة إلا أعلمتنا بها حتى نقضيها لك ، ولانضيع شكر أبى محمد الحجاج فيك . قال إبراهيم : إن الحاجة ألتى نبغى بها وجه الله تعالى والتقرب إلى النبى ﷺ فى القيامة نصيحة أمير المؤمنين ، قال : قل ، قال : لاأقولها وبينى وبينك ثالث ، قال : ولاصديقك الحجاج ، قال : لا ، قال : قم ، فقام خجلا وهو لايعرف أين تطأ رجله .

فلما مضى ، قال له : هات نصيحتك ، فقال إبراهيم : ياأمير المؤمنين وليت الحجاج الحرمين الشريفين وفيهما من تعرف من أولاد المهاجرين والأنصار وصحابة رسول ﷺ مع ما تعلمه من ظلمه وفسقه وجوره وبعده من الحق ، وقربه به إلى الباطل ، يسومهم الخسف ويطؤهم بالعسف ، فليت شعرى أى جواب أعددته لرسول الله ﷺ إذا سألك الله فى عرصات القيامة عن ذلك فبالله عليك ياأمير المؤمنين ألا عزلته وادخرتها قربة إلى الله

تعالى ، فقال عبد الملك : لقد ظن الحجاج الخير بغير أهله ؛ ثم قال : يا إبراهيم قم فقمت على أنحس حال وخرجت من المجلس وقد اسودت الدنيا فى وجهى ، فتبعنى حاجبه وقبض على زندى وجلس بى فى الدهليز، ثم دعا عبد الملك بالحجاج ، فدخل فمكثنا طويلا فما شككت أنهما يتشاوران فى قتلى ثم دعانى فقمت ودخلت فوافانى الحجاج خارجا فعانقنى ، وقال : جزاك الله عنى خيرا فى هذه النصيحة أما والله لئن عشت لأرفعن قدرك ، وتركنى وخرج ؛ ودخلت وأنا أقول يهزأ بى وهومعذر ، فدخلت على عبد الملك فأجلسنى مجلسى الأول ثم قال لى : قد علمت صدقك وقد عزلته عن الحرمين وولايته العراق وأعلمته أنك استقللت له الحجاز واستدعيت له العراق وأنك تطلب له الزيادة فى الأعمال وهو يظن أنك السبب فى توليته العراق وقد تهلل وجهه فرحا بذلك ، فسر معه أيضا أينما توجه يولك خيرا ولاتقطع نصيحتك عنا والله أعلم[1].

[٢٣] وفى مروج الذهب للمسعودى[2] وشرح السيرة وغيرهما : أن أم الحجاج بن يوسف ، وهى : الفارعة بنت همام ولدته مشوها لادبر له فثقب دبره وأبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها فأعياهم أمره ، فيقال : إن الشيطان تصور لهم فى صورة الحارث بن كلدة[3] ، فقال : ماخبركم ؟

---

(١) انظر : الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، لابن رضوان المالقى ص ١٢٨ .

(٢) انظر : مروج الذهب (١٣٠/٢) ، والمسعودى هو : أبو الحسن على ، مؤرخ ورحالة من أهل بغداد ، من ذرية بن مسعود رضى الله عنه ، ت[٣٤٦هـ = ٩٥٧م] .

(٣) الحارث بن كلدة الثقفى : طبيب العرب فى عصره ، وأحد الحكماء المشهورين ، من أهل الطائف . مولده قبل النبى ﷺ وبقى أيام رسول الله ، وأيام أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وكان النبى يأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده ، ت[٥٠هـ = ٦٧٠م] . انظر : طبقات الأطباء (١٠٩/١) .

فقالوا : ولد ليوسف الثقفى من الفارعة ولد وقد أبى أن يقبل ثدى أمه ، فقال : اذبحوا له تيسا أسود وألعقوه دمه ثم اذبحوا له أسود سالخا وأولغوه من دمه وأطلوا به وجهه ثلاثة أيام ، ففعلوا فقبل الثدى في اليوم الرابع فكان لايصبر عن سفك الدم وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره أهـ[1] .

[٢٤] **من حياة الحيوان[2] فى حرف التاء[3] وحكى** :أن الحجاج انفرد يوما من عسكره فلقى أعرابيا ،فقال له :ياوجه العرب كيف الحجاج؟ فقال : ظالم غاشم . قال : هلا شكوته إلى عبد الملك بن مروان، قال : أظلم وأغشم عليهما لعنة الله . فبينما هو كذلك إذ تلاحقت به عساكره فعلم الأعرابى أنه الحجاج ؛ فقال : الأعرابى :أيها الأمير السر الذى بينى وبينك لايطلع عليه أحد إلا الله.فتبسم الحجاج وأحسن إليه وانصرف .

[٢٥] **وذكر أهل التواريخ** : أن الحجاج بن يوسف الثقفى ، سهر ليلة وعنده جماعة منهم خالد بن عرفطة ، فقال : ياخالد ائتنى بمحدث من المسجد ، والناس إذ ذاك يطلبون المقام فى المسجد ، فانتهى إلى شاب قائم يصلى فجلس حتى سلم ، ثم قال : أجب الأمير قال : أبعثك الأمير إلىَّ قاصد ؟ قال : نعم فمضى معه حتى انتهى إلى الباب ، فقال له خالد : كيف أنت ومحادثة الأمير ؟ قال : سيجدنى كما يحب إن شاء الله تعالى ،

---

(١) انظر : مروج الذهب للمسعودى (١/١٣٠) .

(٢)صاحب كتاب حياة الحيوان : محمد بن موسى بن عيسى بن على الدميرى ، أديب من فقهاء الشافعية من أهل دميرة (بمصر) ولد بالقاهرة وتوُفى بها [٨٠٨هـ - ١٤٠٥م] .

(٣) انظر : حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، حرف التاء (١/٢٤٥) .

فلما دخل عليه ، قال له الحجاج : هل قرأت القرآن ؟ قال : نعم وقد حفظته ، قال : فهل تروى شيئا من الشعر ؟ قال : ما من شاعر إلا وأروى عنه ، قال: فهل تعرف من أنساب العرب ووقائعها ؟ قال : لايذهب عنى شيء من ذلك، فلم يزل يحدثه بكل ماأحب حتى إذا هم بالانصراف ، قال: ياخالد مر للفتى ببرذون وغلام ووصيفة وأربعة آلاف درهم ، فقال الفتى : أصلح الله الأمير بقى من حديثى أظرفه وأعجبه فعاد الحجاج إلى مجلسه، وقال: حدثنى ، فقال: أصلح الله الأمير هلك والدى وأنا طفل صغير فنشأت فى حجر عمى وله ابنة بسنى وكنا فى التصابى من الصبا وماكنا فيه أعجوبة، حتى إذا بلغت وبلغت تنافس الخطاب فيها وبذلوا فيها أموالا لجمالها وكمالها فلما رأيت ذلك خامرنى السقم وضنيت ورميت على الفراش ثم عمدت إلى خابية عظيمة فملأتها رملا وصخرا وقبرت رأسها ودفنتها تحت فراشى فلما، تم على ذلك أيام بعثت إلى عمى، فقلت: ياعمى إنى كنت أريد السفر فوقعت على مال عظيم وخفت أن أموت ولايعلمه أحد فإن حدث بى أمر فأخرجه ، وأعتق عنى عشر نسمات، واحجج عنى عشر حجج ، وجهز عنى عشر رجال بخيولهم وأسلحتهم، وتصدق عنى بألف دينار ، ولاتبال ياعم فإن المال كثير . فلما سمع عمى مقالتى أتى امرأته فأخبرها بقولى فما كان بأسرع من أن أقبلت بجواريها حتى دخلت على فوضعت يدها على رأسى؛ ثم قالت: والله يابن أخى ماعلمت بسقمك وماحل بك حتى أخبرنى أبو فلان الساعة وأقبلت تلاطفنى وتعالجنى بالأدوية وحملت لى لطائف وردت الخطاب عن ابنتها. فلما رأيت ذلك تحاملت ثم بعثت إلى عمى أن الله عز وجل قد أحسن إلى وعافانى فابتغ لى جارية من خصالها وكمالها كيت وكيت ولايسألونك

شيئا إلا أعطيته ، فقال يابن أخى مايمنعك من ابنة عمك، فقلت : هى من أعز خلق الله تعالى على غير أنى قد خطبتها قبل ذلك فامتنعت ، قال:كلا إن الامتناع كان من قبل أمها وهى الآن سمحت ورضيت بذلك ، فقلت : شأنك فرجع إلى امرأته فأخبرها بقولى فجمعت عشيرتها وزوجونى إياها ، فقلت: عجل على بابنة عمى كيف شئت ثم أريك الخابية فأهديت إلى ولم تدع شيئا يصنع بإشراف النساء إلا فعلته ثم زفت ابنتها علىّ وأحضرتها بكل ماوجدت إليه سبيلا ؛ وأخذ عمى؛ متاعا من التجار بعشرة آلاف درهم وكان يأتينا فى كل صباح من قبل أبويها لطائف وتحف مدة فلما كان بعد ذلك بأيام أتانى عمى ؛ وقال : يابن أخى إنا قد أخذنا من التجار متاعا بعشرة آلاف درهم وليسوا صابرين على حبس الثمن ، قلت : شأنك والخابية فمر مسرعا حتى جاء بالرجال والحبال فاستخرجها وحملها ومر مسرعا بها إلى منزله . فلما فتحها وجد فيها ما علمت فما كان بأسرع من أن جاءت أمها بجواريها فلم تدع فى منزلى كثيرا ولا قليلا إلا حملته فبقيت مهانا على الأرض ، وجفتنا كل الجفاء فهذا حالى أصلح الله الأمير فأنا من خجلى وضيق صدرى آوى إلى المساجد؛ فقال الحجاج : ياخالد مر للفتى بثياب ديباج وفرس أرمنية وجارية وبرذون وغلام وعشرة آلاف درهم ، وقال : يافتى اغد إلى خالد غدا حتى تستوفى منه المال فخرج الفتى من عند الحجاج قال : فلما انتهيت إلى باب دارى سمعت ابنة عمى تقول : ياليت شعرى ماأبطأ بابن عمى أقتل أم مات أم عرض له سبع ، قال: فدخلت عليها وقلت يابنة عمى أبشرى وقرى عينا فإنى دخلت على الحجاج فكان من القصة كيت وكيت وحكيت لها ما كان من أمرى فلما سمعت الفتاة مقالتى ، لطمت وجهها وصاحت فسمع أبوها وأمها

وأخواتها صراخها فدخلوا عليها وقالوا لها : ماشأنك ؟ فقالت لأبيها : لا وصل الله رحمك ولاجزاك عنى وعن ابن أخيك خيرا جفوته وضيعته حتىأصابته الخفة وذهب عقله اسمع مقالته فقال العم ياابن أخى ماحالك ؟ فقلت : والله مابى من بأس إلا أنى دخلت على الحجاج وذكر له من أمره ما كان وأنه أمر له بمال جزيل ، فقال العم لما سمع مقالته هذه مرة صفراء ثائرة فباتوا يحرسونه تلك الليلة فلما أصبحوا بعثوا إلى المعالج فجعل يعالجه ويسعطه مرة ويسهله أخرى ، فيقول الفتى : والله مابى من بأس وإنما دخلت على الحجاج فكان كيت وكيت فلما رأى الفتى أن ذكر الحجاج لايزيده إلا بلاء كف عنه وعن ذكره ؛ ثم قال له ماتقول فى الحجاج قال مارأيته ثم خرج المعالج فقال لهم قد ذهب عنه الأذى ولكن لاتعجلوا بحل قيده فبقى الفتى مقيدا مغلولا .

فلما كان بعد أيام ذكره الحجاج، فقال ياخالد : مافعل الفتى ؟ فقال أصلح الله الأمير مارأيته منذ خرج من حضرة الأمير ، قال : فابعث إليه أحدا ، قال : فبعث إليه خالد حرسيا فمر الحرسى على العم فقال له : مافعله ابن أخيك فإن الحجاج يطلبه ، قال : إن ابن أخى لفى شغل عن الحجاج قد ابتلى ببلاء فى عقله ، قال : لاأدرى ماتقول لابد من الذهاب به الساعة ؛ فدخل عليه العم فقال : يابن أخى إن الحجاج قد بعث فى طلبك أفاحلك ؟ قال : لا إلا بين يديه فحمل فى قيوده وغله على ظهور الرجال حتى أدخل على الحجاج ، فلما نظره من بعد جعل يرحب به حتى انتهى اليه فكشف قيده وغله وقال : أصلح الله الأمير إن آخر أمرى أعجب من أوله وحدثه بحديثه فعجب الحجاج ، وقال : ياخالد أضعف للفتى ماكنا

قد أمرنا له به ، فقبض المال أجمع وحسن حاله ولم يزل مسامراً للحجاج حتى مات أهـ.

[٢٦] **قيل** : وحضر أعرابى عند الحجاج ، فقدم الطعام فأكل الناس منه ثم قدمت الحلوى فترك الحجاج الأعرابى حتى أكل منها لقمة ثم ، قال: من أكل من الحلوى ضربت عنقه فامتنع الناس من أكلها وبقى الأعرابى ينظر إلى الحجاج مرة والى الحلوى مرة ثم ؛ قال : أيها الأمير أوصيك بأولادى خيرا ثم اندفع يأكل ، فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه وأمر له بصلة.

[٢٧] **وحكى** : أن الحجاج أمر صاحب حراسته أن يطوف بالليل فمن وجده بعد العشاء ضرب عنقه ، فطاف ليلة فوجد ثلاثة صبيان يتمايلون وعليهم أثر الشراب فأحاط بهم ؛ وقال لهم : من أنتم حتى خالفتم الأمير ؟

فقال الأول :

أنا ابن من دانت الرقاب له ... ما بين مخزومها وهاشمها
تأتى إليه الرقاب صاغرة ... يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عن قتله ، وقال : لعله من أقارب أمير المؤمنين .

وقال الثانى :

أنا ابن الذى لاينزل الدهر قدره ... وإن نزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره ... فمنهم قيام حولها وقعود

فأمسك عن قتله ، وقال : لعله من أشراف العرب .

وقال الثالث :

أنا ابن الذى خاض الصفوف بعزمه وقومها بالسيف حتى استقامت
ركابـــاه لاتنفـك رجلاه منهما إذا الخيل فى يوم الكريهة ولت

فأمسك عن قتله ، وقال : لعله من شجعان العرب فلما أصبح رفع أمرهم إلى الحجاج فأحضرهم وكشف عن حالهم ، فإذا الأول ابن حجام ، والثانى ابن فوال ، والثالث ابن حائك ، فتعجب الحجاج من فصاحتهم ، وقال : لجلسائه علموا أولادكم الأدب فوالله لولا الفصاحة لضربت أعناقهم ثم أطلقهم وأنشد :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول هـا أنـا ذا ليس الفتى من يقول كان أبى

[٢٨] **وقيل** : أمر الحجاج بقتل أسرى ، فقتل منهم جماعة ؛ فقال رجل منهم، وقد عرض للقتل : ياحجاج إن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو والله تعالى يقول ﴿**فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًا بعد وإما فداء**﴾ [محمد:٤] فهذا قول الله تعالى فى الكفار فكيف بالمسلمين،وقد قال الشاعر:

ومانقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل الغلائل

فقال الحجاج : أف لهؤلاء الجيف ، والله لو قال هؤلاء مثل ما قال هذا الرجل ماقتلت منهم أحدا ولكن أطلقوا بقيتهم .

[٢٩] **قال الراوى** : ولما ولى الحجاج العراق قال : على بالمرأة الحرورية فلما حضرت قال لها كنت بالأمس فى وقعة الزبير تحرضين الناس على قتل رجالى ونهب أموالى ، قالت : نعم قد كان ذلك ياحجاج فالتفت

الحجاج إلى وزرائه ، وقال : ماترون فى أمرها ؟ فقالوا : عجل بقتلها ، فضحكت المرأة ، فاغتاظ الحجاج وقال:ماأضحكك ؟ قالت : وزراء أخيك فرعون خير من وزرائك هؤلاء ، قال : وكيف ذلك قالت : لأنه استشارهم فى موسى ، فقالوا : أرجه وأخاه أى أنظره إلى وقت آخر وهؤلاء يسألونك تعجيل قتلى فضحك الحجاج وأمر لها بعطاء وأطلقها .

[٣٠] **وحكى** : أن هند بنت النعمان[١] كانت أحسن نساء زمانها فوصف للحجاج حسنها فخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتى ألف درهم ، ودخل بها ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة مدة طويلة ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ماشاء الله ثم دخل عليها فى بعض الأيام وهى تنظر فى المرآة وتقول :

وماهند الا مهرة عربية ... سلالة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلاً فلله درها ... وإن ولدت بغلا فجاء به البغل

فلما سمع الحجاج كلامها انصرف راجعا ولم يدخل عليها ولم تكن علمت به فأراد الحجاج طلاقها ، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتى ألف درهم وهى التى كانت لها عليه ، وقال : ياابن طاهر طلقها بكلمتين ولاتزد عليهما فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها : يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت ؛ وهذه المائتا ألف درهم التى كانت لك

---

(١) هند بنت النعمان بن بشير الأنصارية : شاعرة فصيحة وأديبة برزة ، كانت ذات حسن وجمال . وكانت عند روح بن زنباع ، قبل أن يتزوجها الحجاج . انظر : أعلام النساء (٥/٢٥٩) .

قبله. فقالت : اعلم يابن طاهر إنا والله كنّا فما حمدنا ثم بنّا فما ندمْنا ، وهذه المائتا ألف هى لك ببشارتك بخلاصى من كلب ثقيف ؟

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووُصف له جمالها فأرسل إليها يخطبها لنفسه فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه : بعد الثناء عليه : اعلم يا أمير المؤمنين : إن الكلب ولغ فى الإناء . فلما قرأ عبد الملك بن مروان الكتاب ضحك من قولها ، وكتب إليها يقول : إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب ، فغسْلُ الإناء يحل الاستعمال . فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة ، فكتبت إليه تقول بعد الثناء عليه : اعلم ياأمير المؤمنين إنى لاأجرى العقد إلا بشرط، فإن قلت : ما الشرط ؟ أقول : أن يقود الحجاج محملى من المعرة[1] إلى بلدك التى أنت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التى كان فيها أولا . فلما قرأ ذلك الكتاب عبد الملك ضحك ضحكا شديدا وأرسل إلى الحجاج يأمره بذلك . فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب ولم يخالف وامتثل الأمر وأرسل الحجاج إلى هند يأمرها بالتجهز فتجهزت وسار الحجاج فى موكبه حتى وصل المعرة بلد هند فركبت فى محمل وركب حولها جواريها وخدمها فترجل الحجاج وهو حاف وأخذ بزمام البعير يقوده ويسير بها ، فأخذت تهزأ عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها؛ ثم إنها قالت لدايتها:يادايتى اكشفى لى ستارة المحمل لنشم رائحة النسيم فكشفته فوقع وجهها فى وجهه فضحكت عليه فأنشد يقول :

---

(١) المَعَرَّة هى : معرة النعمان ، مدينة فى سوريا ، وهى مركز رأس أبى العلاء المعرى.

فإن تضحكى ياهند يارب ليلة تركتك فيها كالقباء المفرج[1]

فأجابته تقول :

وما نبالى إذا أرواحنا سلمت بما فقدناه من مال ومن نشب[2]

فالمال مكتسب والعز مرتجع إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل تلعب وتضحك إلى أن قربت من بلد الخليفة ؛ فلما قربت من البلد رمت من يدها دينارا على الأرض وقالت : ياجمّال إنه سقط منّا درهم. قال : بل دينار فقالت : الحمد لله سقط منّا درهم فعوضنا الله دينارا . فخجل الحجاج وسكت ولم يرد جوابا ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها وكان من أمرها ما كان[3] .

[٣١] ذكر فى حياة الحيوان[4] قال عون بن أبى شداد العبدى : بلغنى أن الحجاج بن يوسف لما ذكر له سعيد بن جبير[5] أرسل قائدا من الشام يسمى المتلمس بن الأحوص ومعه عشرون رجلا ، فبينما هم يطلبونه

---

(١) القباء المفرج ، المراد : أنه أهملها وتركها وحيدة .

(٢) النَشَب : الديار والأملاك .

(٣) انظر : أخبار النساء لابن القيم ص ٦٥ .

(٤) انظر حياة الحيوان ، حرف اللام (٤٢٦/٢) .

(٥) سعيد بن جبير الأسدى ، أبو عبد الله : من علماء التابعين العباد ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس ، ثم كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال : أتسألوننى وفيكم ابن أم دهماء يعنى سعيدا ، قال أحمد بن حنبل ، لما قتله الحجاج : قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الأرض أحدا إلا وهو مفتقر إلى علم سعيد ، ت[٩٥هـ - ٧١٤م] . انظر : طبقات ابن سعد (١٧٨/٦) ، وفيات الأعيان (٢٠٤/١) .

إذا هم براهب فى صومعة له فسألوه عنه ، فقال الراهب : صفوه فوصفوه فدلهم عليه ، فانطلقوا فوجدوه ساجدا يناجى ربه بأعلى صوته فدنوا منه وسلموا عليه فرفع رأسه فأتم بقية صلاته ثم رد عليهم السلام ، فقالوا : أرسل الحجاج إليك فأجبه فقال : لابد من الإجابة ؟ قالوا : لابد ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ثم قام فمشى معهم حتى انتهى إلى دير الراهب .

فقال الراهب : يامعشر الفرسان أصبتم صاحبكم ؟ قالوا : نعم ، قال: اصعدوا إلى الدير فإن الأسد واللبوة يأويان إلى الدير فعجلوا الدخول قبل المساء ففعلوا ذلك ، وأبى سعيد أن يدخل الدير ، فقالوا : مانراك الا تريد الهرب ، قال : لا ولكن لا أدخل منزل مشرك أبدا ، قالوا : فإنا لاندعك فإن السباع تقتلك ، قال سعيد : إن معى ربى يصرفها عنى ويجعلها حرسا لى من كل سوء إن شاء الله تعالى ، قالوا : أفأنت نبى من الأنبياء ؟ قال:ما أنا من الأنبياء ولكن عبد من عبيد الله خاطئ مذنب ، قالوا احلف لنا إنك لاتبرح ، فحلف لهم . فقال لهم الراهب : اصعدوا الدير وأوتروا القسى[1] لتنفروا السباع عن هذا العبد الصالح ، فإنه كره الدخول علىّ فى الصومعة فدخلوا وأوتروا القسى فإذا هم بلبوة أقبلت ودنت من سعيد وتحككت وتمسحت به ثم ربضت قريبا منه ، ثم أقبل الأسد فصنع مثل ذلك ، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا نزل إليه وسأله عن شرائع الإسلام وسنن رسول الله ﷺ ففسر له سعيد ذلك كله فأسلم الراهب وحسن إسلامه ، وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه ويقبلون يديه ورجليه ويأخذون التراب الذى

---

(١) أوتروا القُسّى : استعدوا للرمى بالسهام .

وطئه بالليل وصلى عليه وقالوا ياسعيد حلفنا الحجاج بالطلاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نشخصك إليه فمرنا بما شئت قال : امضوا لشأنكم فإنه لابد من الرجوع لخالقي ولاراد لقضائه فسار حتى وصلوا واسط فلما انتهوا ، قال لهم سعيد : يامعشر القوم قد تحرمت بكم وصحبتكم ولست أشك أن أجلي قد حضر وأن المدة قد انقضت ، فدعوني الليلة آخذ أهبة الموت وأستعد لمنكر ونكير وأذكر عذاب القبر ومايحثى عليَّ من التراب فإذا أصبحتم فالميعاد بيني وبينكم المكان الذى تريدون ، فقالوا لبعضهم : لانريد أثراً بعد عين ، وقال بعضهم : قد بلغتم أمنيتكم واستوجبتم جوائزكم من الأمير فلا تعجزوا عنه ، فقال بعضهم : هو على أدفعه إليكم إن شاء الله تعالى فنظروا إلى سعيد فدمعت عيناه واغبر لونه ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ لقوه فقالوا بأجمعهم : ياخير أهل الأرض ليتنا لم نعرفك ، ولم نرسل إليك ، الويل لنا ، كيف ابتلينا ، ماعذرنا عند خالقنا يوم المحشر الأكبر، والمحاوبة له ، وقال كفيله : أسالك ياسعيد بالله ألا مازودتنا من دعائك وكلامك ، فإنا لانلقى مثلك أبدا فدعا لهم سعيد ، ثم خلوا سبيله فغسل رأسه ومدرعته وكساءه وهم مختفون الليل كله .

فلما انكشف عمود الصبح جاءهم سعيد بن جبير فقرع الباب ، فقالوا: صاحبكم ورب الكعبة فنزلوا إليه وبكوا معه طويلا ثم ذهبوا به إلى الحجاج ، فدخل عليه المتلمس فسلم وبشره بقدوم سعيد بن جبير ؛ فلما مثل بين يديه ، قال : ماسمك؟ قال : سعيد بن جبير . قال أنت شقى بن كسير. قال : بل أمى كانت أعلم باسمى منك .قال : شقيت أنت وشقيت أمك . قال : الغيب يعلمه غيرك . قال: لأبدلنك بالدنيا نار . قال : لو

علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها . قال : فما قولك فى محمد؟ قال : نبى الرحمة قال: فما قولك فى على أفى الجنة أم فى النار قال لو دخلتها وعرفت أهلها عرفت من فيها قال : فما قولك فى الخلفاء قال : لست عليهم بوكيل. قال : فأيهم أحب إليك ؟ قال : أرضاهم للخالق . قال : فأيهم أرضى للخالق ؟ قال : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم . قال : فما بالك لاتضحك قال أيضحك مخلوق من طين والطين تأكله النار فما بالنا نضحك . قال : لم تستو القلوب . قال : ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فوضعه بين يديه، فقال سعيد : إن كنت جمعت لتفتدى به من فزع يوم القيامة فصالح والإ ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ولاخير فى شئ جمع لدنيا إلا ماطاب وزكا ؛ ثم دعا الحجاج بآلات اللهو فبكى سعيد . فقال الحجاج: ويلك ياسعيد اختر أى قتلة تريد. قال: اختر لنفسك ياحجاج فوالله لاتقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة . قال : أفتريد أن أعفو عنك . قال : إن كان العفو من الله فبلى ، وأما أنت فلا . قال : اذهبوا به فاقتلوه فلما خرج من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده ، وقال: ماأضحكك ؟ قال : عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عليك ، فأمربالنطع فبسط بين يديه ، وقال : اقتلوه . قال : ﴿**وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ومأنا من المشركين**﴾[الأنعام:٧٩] قال : وجهوه لغير القبلة. قال سعيد : ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾[البقرة: ١١٥] قال : كبوه لوجهه. فقال سعيد : ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾[طه: ٥٥] فقال الحجاج: اذبحوه. فقال سعيد : أشهد أن لااله الا الله وأشهد أن محمدا

عبده ورسوله اللهم لاتسلطه على أحد يقتله بعدى ، فذبح على النطع رحمه الله تعالى فكان رأسه بعد قطعه يقول لا إله إلا الله ، وعاش الحجاج بعدها خمسة عشرة يوما وذلك فى سنة خمس وتسعين وكان عمر سعيد رضى الله تعالى تسعا وأربعين سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم[1] .

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم (٢٧٢/٤) .

٣- فصل

خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان[١]

كان يختم القرآن فى ثلاث ، وكان يختم فى رمضان سبع عشرة ختمة، قال إبراهيم بن علية[٢] : كان يعطينى أكياس الدنانير أقسمها فى الصالحين ، وكان يقول: لولا أن الله عز وجل ذكر اللواط فى كتابه العزيز ماظننت أن أحدا يفعله .

[٣٢] **قال الحافظ بن عساكر**[٣] : كان الوليد عند أهل الشام أفضل من خلفائهم؛ بنى المسجد بدمشق وفرض للمجذومين مايكفيهم ، وقال لاتسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادما ، وكل أعمى قائدا ؛ وذكر أن جملة ماأنفق على المسجد الأموى أربعمائة صندوق فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل ، وما كمل بناءه الا أخوه سليمان لما ولى الخلافة وفعل خيرات كثيرة وآثارا حسنة

---

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ولى الخلافة بعد وفاة أبيه (٨٦ هـ) امتدت فى زمنه حدود الدولة الإسلامية إلى بلاد الهند ، فتركستان ، فأطراف الصين شرقا . وأول من أحدث المستشفيات فى الإسلام ، وجعل لكل أعمى قائدا ، يتقاضى نفقاته من بيت المال ، وبنى الجامع الأموى بدمشق . وكانت مدة خلافته (تسع سنوات وثمانية أشهر) وكان نقش خاتمه "يا وليد إنك ميت" ، ت[٩٦هـ =٧١٥م] .

(٢) انظر : تاريخ بغداد (٦/٢٠) .

(٣) الحافظ بن عساكر : على بن أبى محمد الحسن بن هبة الله .، محدث الشام فى وقته، ومن أعيان فقهاء الشافعية ، له تاريخ دمشق ، ت[٥٧١هـ] . انظر : وفيات الأعيان (٣/٣٠٩-٣١١) .

وبعد هذا كله ، فقد روى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال لما أدرج فى أكفانه غلت يداه إلى عنقه نسأل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ونسأله حسن الخاتمة ، انتهى من حياة الحيوان[1] .

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١٠٠) .

٤- فصل

خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان[١]

[٣٣] **فمما يذكر من محاسنه**[٢] : أن رجلا دخل عليه ، فقال : ياأمير المؤمنين أنشدك الله والأذان ، فقال سليمان : أما أنشدك الله فقد عرفناه فما الأذان ؟ قال : قوله تعالى ﴿**فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين**﴾ [الأعراف: ٤٤] فقال سليمان : ما ظلامتك؟ قال : ضيعتى الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان ؛ فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الأرض وقال : والله لارفعت خدى من الأرض حتى يُكتبَ له بِردِ ضيعته فكتب الكتاب وهو واضع خده على الأرض . ولما سمع كلام ربه الذى خلقه وخَوّلَه فى نعمه ، خشى من لعن الله وطرده ؛ رحمه الله .

قيل : إنه أطلق من سجن الحجاج ثلاثمائة ألف نفس مابين رجل وامرأة، وصادر آل الحجاج ، واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيرا مشيرا، وكان شرها فى الأكل نَكّاحا . قال بن خلكان فى ترجمته[٣]: إنه

---

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان ، ولى الخلافة يوم وفات أخيه الوليد (٩٦هـ) وكان بالرمله ، فلم يتخلف أحد عن مبايعته . أطلق الأسرى وأخلى السجون ، وعفا عن المجرمين ، وجهز جيشا كبيرا وسيره فى السفن بقياده أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية . وفى عهده فتحت جرجان، وطبرستان . وتوفى فى دابق ، بين حلب والمعرة . وكانت مدة خلافته سنتان وثمانية أشهر ، ت[٩٩هـ- ٧١٧م] .

(٢) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١٠١) .

(٣) انظر : وفيات الأعيان (٢/٤٢٠ رقم ٢٧٩) .

كان يأكل كل يوم نحو مائة رطل شامي . قال محمد بن سيرين[1] : رحمه الله سليمان افتتح خلافته بخير وختمها بخير : افتتحها بإقامة الصلاة لمواقيتها الأولى ، وختمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

[٣٤] **وقال أبو سويد حدثني أبو زيد الأسدى قال**[2]: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبلط بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر في وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبتها وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت. فقلت : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وكان مطرقا فرفع رأسه ، وقال : ياأبا زيد في مثل هذا الحين تصالحنا ، فقلت : أصلح الله الأمير أو قامت القيامة ؟ قال: نعم على أهل المحبة ؛ ثم أطرق مليا ورفع رأسه ، فقال : يا أبا زيد مايطيب في يومنا هذا؟ قلت : أعز الله الأمير؛ قهوة حمراء في زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء ملفوفة لفاء أشربها من كفها وأمسح فمي بخدها. فأطرق سليمان مليا لايرد جوابا ، تنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق. فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه، ثم رفع رأسه ، فقال : يا أبا زيد حضرت في يوم انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرم عمرك، والله لأضربن عنقك أولتخبرني ما آثار هذه الصفة من قلبك ؟ قلت : نعم أيها الأمير كنت جالسا على باب أخيك سعيد بن عبد الملك ، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب

---

(١) محمد بن سيرين البصرى الأنصارى : إمام عصره ، وحافظ وقته من كبار التابعين ، ومن المعبرين للرؤيا ، ت[١١٠هـ] .

(٢) انظر : العقد الفريد ، لابن عبد ربه (٦٦/٦) .

إسكندرانى يبين منه بياض ثدييها وتدوير سرتها ونقش تكتها ، وفى رجليها نعلان صراران ، قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها بذؤابتين تضربان حقويها[1] ، ولها صدغان كأنهما نونان ، وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها ، وعينان مملوءتان سحرا ، وأنف كأنه قصبة بلور ، وفم كأنه جرح يقطر دما ، وهى تقول : عباد الله من لى بدواء من لا يسلو ، وعلاج من لا يسمو ، طال الحجاب وأبطأ الجواب ، فالقلب طائر ، والعقل عازب ، والنفس والهة ، والفؤاد مختلس ، والنوم محتبس ، رحمة الله على قوم عاشوا تجلدا وماتوا كمدا[2]، ولو كان إلى الصبر حيلة وإلى العزاء سبيل لكان أمرا جميلا ، ثم أطرقت مليا ورفعت رأسها ، فقلت : أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية سماوية أم أرضية فقد أعجبنى ذكاء عقلك وأذهلنى حسن منطقك ، فسترت وجهها بكفيها كأنها لم ترنى ، ثم قالت : اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد والمقاساة لصب معاند ثم انصرفت ، فوالله -أصلح الله الأمير- ماأكلت طيبا إلا غصصت به لذكرها، ومارأيت حسنا إلا سمج فى عينى لحسنها . قال سليمان : ياأبا زيد كاد الجهل يستفزنى والصبا يعاودنى والحلم يعزب عنى لشجو ما سمعت اعلم ياأبا زيد تلك الجارية التى رأيتها هى الذلفاء[3] التى قيل فيها :

إنما الذلفاء ياقوتة ... قد أخرجت من كيس دهقان[4]

---

(١) الحَقْو : الخصر .

(٢) الكمد : الحزن والغم .

(٣) الذلفاء : جارية ابن طَرخْان مغنية شاعرة اشتراها سليمان بن عبد الملك بعد أن صارت إليه الخلافة . انظر : اعلام النساء (٤٢٧/١) .

(٤) الدِّهْقان : تاجر الأحجار الكريمة .

شراؤها على أخي بألف ألف درهم وهي عاشقة لمن باعها والله إن مات إنما يموت بحبها ولايدخل القبر إلا بغصتها وفي الصبر سلوة وفي توقع الموت هيبة ، قم يا أبا زيد في دعة الله ، ياغلام ثقله ببدرة فأخذتها وانصرفت .

قال : فلما أفضت الخلافة له صارت إليه الذلفاء فأمر بفسطاط فأخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها من أنواع الزهر من أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغن يقال له سنان كان به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه ، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المتنزه فلم يزل في أكل وشرب وسرور وأتم حبور إلى أن انصرف شيء من الليل فذهب إلى فسطاطه وذهب سنان أيضا فنزل به جماعة من إخوانه ، فقالوا له : نريد قرى[1] أصلحك الله . قال : وماقراكم قالوا : أكل وشرب وسماع قال : أما الأكل والشراب فمباحان لكم وأما السماع فقد عرفتم غيرة أمير المؤمنين ونهيه إلا ما كان في مجلسه قالوا : لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا قال : فاختاروا أصواتا أغنيكموه ، قالوا :غننا بصوت كذا وكذا .قال: فشرع يتغنى بهذه الأبيات:

محبوبة سمعت صوتي فأرقها ... من آخر الليل لما نبه السحر
في ليلة البدر مايدري مضاجعها ... أوجهها عنده أم عنده القمر
لم يحجب الصوت حراس ولاغلق ... فدمعها الطروق الصوت ينحدر
لو مكثت لمشت نحوي على قدم ... وكاد من لينها للمشي ينفطر

---

(١) القِرى : مايقدم للضيف .

قال : فسمعت الذلفاء صوت سنان فخرجت إلىصحن الفسطاط فجعلت لاتسمع شيئا من حسن خلق ولطافة إلا رأت ذلك كله فى نفسها وهيئتها فحرك ذلك ساكنا من قلبها فهملت عيناها وعلا نحيبها ؛ فانتبه سليمان فلم يجدها معه فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحالة فقال لها : ماهذا ياذلفاء ؟ فقالت :

ألارب شخص رائع ومشوه ... قبيح المحيا واضع الأب والجد
يروعك منه صوته ولعله ... إلى أمه يعزى معا وإلى عبد

فقال سليمان : دعينى من هذا الحال فوالله لقد خامر قلبك منه ياغلام علىَّ بسنان ، فدعت الذلفاء خادما لها وقالت له : إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذرته فلك عشرة آلاف درهم ، وأنت حر لوجه الله تعالى ؛ فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين ؛ فلما أتى به قال : ياسنان ألم أنهك عن مثل هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين حملنى الشمول وأنا عبد أمير المؤمنين وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عنى ، فليفعل قال : قد عفوت عنك ، ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل ودقت له الحجرة ، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة ، وأن الرجل إذا تغنى صغت إليه المرأة ، وإياك والعود إلى ماكان منك فيطول غمك ، انتهى[1] .

[٣٥] **وقيل** : كان فى أيام سليمان رجل يقال له : خزيمة بن بشر من بنى أسد كانت له مروءة ظاهرة ونعمة حسنة وفضل وبر بالإخوان فلم يزل على تلك الحالة حتى قعد به الدهر فاحتاج إلى إخوانه الذين كان

---

(١) انظر : تزيين الأسواق فى أخبار العشاق ، لداود الأنطاكى ص ٢٨٦ .

يتفضل عليهم وكان يواسيهم فواسوه حينا ثم ملوه فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال : ياابنة عمى قد رأيت من إخوانى تغيرا وقد عزمت على أن ألزم بيتى إلى أن يأتينى الموت ، فأغلق بابه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفد وبقى حائرا .

وكان يعرفه عكرمة الفياض الربعى متولى الجزيرة وإنما سمى بذلك لأجل كرمه ، فبينما هو فى مجلسه إذ ذكر خزيمة بن بشر ، فقال عكرمة الفياض : ماحاله فقالوا : قد صار إلى أمر لايوصف ، وإنه أغلق بابه ولزم بيته قال : أفما وجد خزيمة بن بشر مواسيا ولامكافئا ؟ فقالوا : لا ، فأمسك عن الكلام . ثم لما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها فى كيس واحد ثم أمر بإسراج دابته وخرج سرا من أهله ، فركب ومعه غلام من غلمانه يحمل المال ثم سار حتى وقف بباب خزيمة ، فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فدفعه بنفسه ، فخرج إليه خزيمة فناوله الكيس، وقال : أصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلا فوضعه عن يده ، ثم أمسك بلجام الدابة وقال له : من أنت جعلت فداك ؟ فقال له عكرمة : ياهذا ماحنتك فى هذا الوقت والساعة وأريد أن تعرفنى ، قال : فما أقبله إلا إن عرفتنى من أنت ، فقال : أنا جابر عثرات الكرام ، قال : زدنى قال : لا، ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس على ابنة عمه فقال لها : أبشرى فقد أتى الله بالفرج والخير ولو كانت فلوسا فهى كثيرة قومى فاسرجى قالت : لاسبيل إلى السراج فبات يلمسها بيده فيجد خشونة الدنانير ولايصدق وأما عكرمة فإنه رجع إلى منزله فوجد امرأته قد فقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه فأنكرت ذلك وارتابت وقالت له : والى الجزيرة يخرج بعد هدو من الليل منفردا من غلمانه فى سر من أهله إلى

زوجة أو سرية، فقال: اعلمى أنى ماخرجت فى واحدة منهما ، قالت : فخبرنى فيم خروجك. قال: يا هذه ماخرجت فى هذا الوقت وأنا أريد أن يعلم بى أحد ، قالت : لابد أن تخبرنى قال : تكتمينه إذاً ؟ قالت : فإنى أفعل فأخبرها بالقصة على وجهها وماكان من قوله ورده عليه ، ثم قال : أتحبين أن أحلف لك أيضا ؟ قالت : لا فإن قلبى قد سكن وركن إلى ماذكرت وأما خزيمة فلما أصبح صالح الغُرماء ، وأصلح ماكان من حاله .

ثم إنه تجهز يريد سليمان بن عبد الملك وكان نازلا يومئذ بفلسطين؛ فلما وقف ببابه واستأذن دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهورا بمروءته وكرمه وكان سليمان عارفا به فأذن له ؛ فلما دخل سلم عليه بالخلافة فقال له سليمان بن عبد الملك: ياخزيمة ماأبطأك عنا؟ قال: سوء الحال قال : فما منعك من النهضة إلينا ؟ قال : ضعفى ياأمير المؤمنين. قال : فبم نهضت إلينا الآن ؟ قال :لم أعلم ياأمير المؤمنين إلا أنى بعد هدو من الليل لم أشعر إلا ورجل يطرق الباب وكان من أمره كيت وكيت وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها ؛ فقال سليمان : هل تعرف الرجل فقال خزيمة : ماعرفته ياأمير المؤمنين لأنه كان متنكرا ، وماسمعت من لفظه إلا أنى جابر عثرات الكرام . قال : فتلهب وتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال : لوعرفناه لكافأناه على مروءته ، ثم قال : علىّ بقناة فأتى بها؛ فقعد لخزيمة بن بشر المذكور على الجزيرة عاملا عوضا عن عكرمة الفياض فخرج خزيمة طالبا الجزيرة .فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه فسلما على بعضهما ثم سارا جميعا إلى أن دخلا البلد، فنزل خزيمة فى دار الإمارة ، وأمر أن يأخذ لعكرمة كفيل وأن يحاسب فحوسب فوجد عليه فضول أموال كثيرة ، فطالبه بأدائها ، قال : مالى إلى شىء من

ذلك سبيل ، قال: لابد منها ، قال: ليست عندى فاصنع ماأنت صانع ، فأمر به إلى الحبس ثم أنفذ إليه من يطالبه فأرسل يقول : إنى لست ممن يصون ماله بعرضه فاصنع ماشئت ، فأمر أن يكبل بالحديد فأقام شهرا كذلك أو أكثر فأضناه[1] ذلك وأضر به .

وبلغ ابنة عمه خبره، فجزعت واغتمت لذلك ثم دعت مولاة لها وكانت ذات عقل ومعرفة وقالت لها : امضى الساعة إلى باب هذا الأمير خزيمة بن بشر ، وقولى عندى نصيحة فإذا طلبت منك فقولى : لاأقولها إلا للأمير خزيمة بن بشر ، فإذا دخلت عليه فسليه أن يخليك ، فإذا فعل ذلك فقولى : ماكان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك كافأته بالحبس والضيق والحديد ففعلت الجارية ذلك ؛ فلما سمع خزيمة كلامها نادى برفيع صوته وا سوأتاه ، وإنه لهو قالت : نعم فأمر لوقته بدابته فأسرجت وبعث إلى وجوه أهل البلد فجمعهم إليه وأتى بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل خزيمة ومن معه فرآه قاعدا فى قاعة الحبس متغيرا أضناه الضرو الألم وثقل القيود ، فلما نظر إليه عكرمة وإلى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فأقبل خزيمة حتى أكب على رأسه فقبله فرفع عكرمة إليه رأسه قال : ما أعقب هذا منك ؟ قال : كريم فعالك وسوء مكافأتى يغفر الله لنا ولك ثم أتى بالحداد ففك القيود عنه وأمر خزيمة أن توضع القيود فى رجل نفسه ، فقال عكرمة : ماذا تريد فقال : أريد أن ينالنى من الضر مثل مانالك ، فقال : أقسم عليك بالله لاتفعل ، فخرجا جميعا حتى وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف عنه، فقال : ماأنت ببارح ، قال : وماتريد ، قال :

---

(١) أضناه : عاناه .

أغير حالك وإن حيائى من ابنة عمك أشد من حيائى منك ، ثم أمر بالحمام فأخلى ودخلاه معا فقام خزيمة وتولى أمره وخدمه بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمله وحمل معه كثيرا ، ثم سار معه إلى داره واستأذنه فى الاعتذار إلى ابنة عمه فاعتذر إليها ، وتذمم من ذلك . قال : ثم سأله بعد ذلك أن يسير معه إلى سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ مقيم بالرملة فأنعم له بذلك، وسارا جميعا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك ، فدخل الحاجب فأعلمه بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك ، وقال : والى الجزيرة يقدم بغير أمرنا ماهذا إلا لحادث عظيم فلما دخل قال له : قبل أن يسلم عليه ماوراءك ياخزيمة ؟ قال: الخير ياأمير المؤمنين . قال : فما الذى أقدمك ؟ قال : ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك به لما رأيت من تلهفك وتشوقك إلى رؤيته ، قال : ومن هو ؟ قال : عكرمة الفياض ، قال : فأذن له بالدخول فدخل وسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال عكرمة : ماكان خيرك له إلا وبالا عليك ؛ ثم قال سليمان : اكتب حوائجك كلها وماتحتاج إليه فى رقعة ففعل ذلك ، فأمر بقضائها من ساعته وأمر له بعشرة آلاف دينار وسفطين ثيابا ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان ، وقال له : أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته قال : بل اردده إلى عمله ياأمير المؤمنين ثم انصرفا من عنده جميعا ولم يزالا عاملين لسليمان مدة خلافته والله أعلم .

٥- فصل

خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ونفعنا به[١]

أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو تابعى جليل.

[٣٦] **قال الإمام أحمد بن حنبل** : ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز ، كان رضى الله عنه عفيفا زاهد ناسكا عابدا مؤمنا تقيا صادقا ، أزال ماكانت بنو أمية تذكر به عليا رضي الله عنه على المنابر وجعل مكان ذلك قوله تعالى ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾ [النحل: ٩٠] الآية.

[٣٧] و[**قيل**] : لما ولى الخلافة رضي الله عنه وفد الشعراء إليه وأقاموا ببابه أياما لايؤذن لهم فبينما هم كذلك إذ مر بهم رجاء بن حيوة وكان جليس عمر فلما رآه جرير[٢] داخلا قام إليه وأنشد يقول أبياتا منها :

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموى ، أبو حفص : الخليفة العادل ، عد من الخلفاء الراشدين كان يقول : كانت لى نفس توافة ، تاقت إلى الإمارة ، فلما بلغتها ، تاقت إلى الخلافة فلما بلغتها تاقت إلى الجنة . ت [٩٩هـ = ٧١٧م] . انظر: حلية الأولياء (٥/٢٥٢،٢٥٣) .

(٢) جرير ، أبو حرزة : شاعر أموى ولد فى اليمامة . امتاز بالهجاء لاسيما هجو خصميه الأخطل والفرزدق . له ديوان يتضمن الفنون التقليدية من مدح وهجاء وفخر وغزل..، ت[١١٤هـ = ٧٣٣م] .

يأيها الرجل المرخى عمامته هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل ولم يذكر شيئا من أمرهم ثم مر بهم عدى بن أرطأة[1] فقال جرير: أبياتا آخرها قوله :

لاتنس حاجتنا لقيت مغفرة قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

قال[2]: فدخل عدى على عمر وقال : يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة فقال : ويحك ياعدى مالى وللشعراء ، قال: أعز الله أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد امتدح وأعطى لك فى رسول ﷺ أسوة ، قال: كيف ؟ قال : امتدحه العباس بن مرداس السلمى[3] فأعطاه حلة قطع بها لسانه . قال: أتروى من قوله ؟ قال : نعم ، وأنشد :

رأيتك ياخير البرية كلها نشرت كتابا جاء بالحق معلما
شرعت لنادين الهدى بعد جورنا عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالبرهان أمرا مدنسا وأطفأت بالإسلام نارا تضرما
فمن مبلغ عنى النبى محمدا وكل امرئ يجزى بما كان قدما

---

(١) عدى بن أرطأة الفزارى ، أبو واثلة : أمير من أهل دمشق ، كان من العقلاء الشجعان، ولاه عمر بن عبد العزيز على البصرة ، قتل فى فتنة يزيد بن المهلب بالعراق ، ت[١٠٢هـ = ٧٢٠م] . انظر : تاريخ اليعقوبى (٥٣/٣) .

(٢) انظر : ثمرات الأوراق ص٦٣ .

(٣) العباس بن مرداس : شاعر سليمى أسلم وبايع النبى ﷺ هو وقومه ، ت[١٨هـ = ٦٣٩م].

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه وقد كان قدما ركنه قد تهدما

فقال : ويلك ياعدى من بالباب منهم ؟ قال : عمر بن أبى ربيعة[1] ، قال له : أو ليس هو الذى يقول :

ثم نبهتنا فمرت كعابا طفلة ماتبين رجع الكلام
ساعة ثم إنها لى قالت ويلتى قد عجلت يابن الكرام

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه لكان أستر له لايدخل علىَّ والله أبدا فمن بالباب سواه ؟ قال : الفرزدق[2] قال : أو ليس هو الذى يقول:

هما دليانى من ثمانين قامة كما انقض بازأكتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا أحى فيرجى أم قتيل نحاذره

لايدخل علىَّ والله أبدا ، فمن سواه منهم ؟ قال غ الأخطل[3] قال : ياعدى أو ليس هو الذى قال :

ولست بصائم رمضان طوعا ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عيسا بكورا إلى بطحاء مكة للنجاح

---

(١) عمر بن أبى ربيعة المخزومى ، أبو الخطاب : كان شاعرا مشهورا كثير الغزل ، والنوادر والوقائع ، والمجون والخلاعة ،ت[٩٣هـ = ٧١٢م] .

(٢) همام بن غالب بن صعصعة بن مجاشع ، الفرزدق : من شعراء الدولة الأموية . ولد فى البصرة ، اشتهر بالمدح والهجو ، لاسيما مادار بينه وبين جرير فى الهجاء .له ديوان جمعه محمد بن حبيب ، ت[١١٤هـ = ٧٣٣م] .

(٣) غِياث التغلبى ، الأخطل : شاعر نصرانى ، اشتهر بمدح الأمويين وهجاء أعدائهم . له نقائض مع جرير ، وديوان جمع قصائده السكرى ، ت[٩١هـ = ٧١٠م] .

ولست بقائم كالعود أدعو قبيل الصبح حتى على الفلاح
ولكنى سأشر بها شمولا وأسجد عند مبتلج الصباح

والله لايدخل على أبدا وهو كافر . فمن بالباب سوى من ذكرت ؟ قال: الأحوص[1] قال : أوليس هو الذى يقول :

الله بينى وبين سيدها يغربها عنى وأتبعه

فمن بالباب دون من ذكرت أيضا ؟ قال : جميل بن معمر[2] . قال : أوليس هو الذى يقول :

فياليتنا نحيا جميعا وإن أمت يوافق موتى موتها وضريحها

فلو كان عدو والله تمنى لقاءها فى الدنيا ليعمل بعد صالحا لكان أصلح والله لايدخل على أبدا . فهل أحد سوى من ذكرت ؟ قال : جرير ، قال : أوليس هو الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس إذ وقت الزيارة فارجعى بسلام

فإن كان ولابد فهو الذى يدخل فلما مثل بين يديه ، قال : ياجرير اتق الله ولاتقل الا حقا فأنشد قصيدته الرائية المشهورة التى منها :

إنا لنرجو اذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة مانرجو من المطر

---

(١) عبد الله ، الأحوص : شاعر أموى من أهل المدينة . اشتهر بالهجاء والغزل ، وكان ماجنا فناله الجلد والتشهير ، ت[١٠٤هـ = ٧٢٣] .

(٢) جميل بن معمر العذرى ، جميل بثينة : شاعر أموى من بنى عذرة ، تغنى بمعشوقته بثينة فعرف بها توفى بمصر ، ت[٨١هـ = ٧٠١م] .

جاء الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير مادمت حيا لايفارقنا بوركت ياعمر الخيرات من عمر

فقال ياجرير : لاأرى لك فيما ههنا حقا قال : بلى ياأمير المؤمنين أنا ابن سبيل منقطع ، فأعطاه من طيب ماله مائة درهم ، وقال : ويحك ياجرير لقد ولينا هذا الأمر ولم نملك إلا ثلثمائة درهم فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أم عبد الله ، ياغلام: اعطه المائة الاخرى فأخذها جرير، وقال : والله لهى أحب مال اكتسبته فى عمرى ثم خرج . فقال له الشعراء: ماوراءك ؟ فقال : مايسوءكم ، خرجت من عند خليفة يعطى الفقراء ويمنع الشعراء ، وإنى عنه لراض وأنشد يقول :

رأيت رقى الشيطان لاتستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

٦- فصل

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان[١]

[٣٨] قال أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى قال يونس الكاتب : خرجت إلى الشام فى خلافة هشام بن عبد الملك ومعى جارية غانية وكنت علمتها جميع ماتحتاج إليه وأنا أقدر فيها أنها تساوى مائة ألف درهم ، قال : فلما قربنا من الشام نزلت القافلة عن غدير من الماء ونزلت ناحية منه وأصبت من طعام كان معى وأخرجت ركوة كان فيها نبيذ فبينما أنا كذلك ، وإذا بفتى حسن الوجه والهيئة على فرس أشقر ومعه خادمان فسلم علىَّ وقال : أتقبل ضيفا ؟ قلت : نعم فأخذ بركابه ونزل ، وقال : اسقنا من شرابك فسقيته فقال : إن شئت أن تغنى صوتا فغنيته :

حازت من الحسن مالا حازه البشر ... فلذ لى فى هواها الدمع والسهر

فطرب طربا شديدا واستعاده مرارا ثم قال : قل لجاريتك فلتغن ، فأمرتها فغنت:

جويرة حار قلبى فى محاسنها ... فلا قضيب ولاشمس ولاقمر

فطرب طربا شديدا واستعاده مرارا ولم يزل مقيما إلى أن صلينا العشاء؛ ثم قال : ماأقدمك علينا هذا البلد ؟ قلت : أردت بيع جاريتى هذه.

---

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان : من ملوك الدولة الأموية بالشام ، أخو يزيد الثانى . فى عهده بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها فتح ناربونا ، وبلغت أبوابه فرنسا حيث وقعت معركة "بلاط الشهداء" ت[١٢٥هـ -٧٤٣م] . انظر : تاريخ الطبرى (٣٨٣/٨) ، تاريخ ابن خلدون (٣/٨٠-١٣٠) .

قال : فكم أملت فيها من الثمن قلت ماأقضى به دينى وأصلح به حالى ، قال : ثلاثون ألفا ، قلت ماأحوجنى إلى فضل الله والمزيد فيه ، قال : أيقنعك أربعون ألفا ، قلت فيها قضاء دينى وأبقى صفر اليد ، قال : قد أخذناها بخمسين ألفا من الدراهم ، ولك بعد ذلك كسوة ونفقة طريقك وأشركك فى حالى أبدا مابقيت ، فقلت : قد بعتكها . قال : أفتثق بى أن أوصل ذلك غدا وأحملها معى ، أو تكون عندك إلى أن أحمل ذلك اليك غدا، فحملنى السكر والحياء مع الخشية منه على أن قلت : نعم قد وثقت بك فخذها بارك الله لك فيها ، فقال : لأحد غلاميه احملها على دابتك وارتدف وراءها وامض بها ؛ ثم ركب فرسه وودعنى وانصرف ، فما هو إلا أن غاب عنى ساعة، فعرفت موضع خطئى وغلطى ، وقلت : ماذا صنعت بنفسى أسلم جاريتى إلى رجل لاأعرفه ولاأدرى من هو ، وهب أنى عرفته فمن أين الصلة إليه ، فجلست متفكرا إلى أن صليت الصبح ودخل أصحابى دمشق وجلست حائرا لاأدرى ماأصنع وقرعتنى الشمس وكرهت المقام فهممت بالدخول إلى دمشق ثم قلت لم آمن أن الرسول يأتى فلا يجدنى ، فأكون قد جنيت على نفسى جناية ثانية فجلست فى ظل جدار هناك فلما أضحى النهار وإذا أحد الغلامين اللذين كانا معه قد أقبل على فما أذكر أنى سررت بشئ لأعظم من سرورى ذلك الوقت بالنظر إليه ، فقال لى : ياسيدى أبطأنا عليك فلم أذكر له شيئا مما كان بى ؛ ثم قال لى : أتعرف الرجل ؟ قلت : لا ، قال : هو الوليد بن يزيد[1] ولى العهد فسكت

---

(١) الوليد بن يزيدبن عبد الملك بن مروان ، أبو العباس : ولى الخلافة بعد وفاة عمه هشام، فمكث فى الخلافة سنة وثلاثة أشهر . ونقم عليه الناس حبه للهو ، حتى قتل فى قصر النعمان بن بشير ت[١٢٦هـ-٧٤٤م]. انظر : تاريخ ابن خلدون (١٠٦/٣).

عند ذلك ؛ ثم قال : قم فاركب وإذا معه دابة فركبتها وسرنا إلى أن وصلنا إلى داره فدخلت إليه وإذا بالجارية قد وثبت وسلمت على فقلت : ماكان من أمرك ؟ قالت : أنزلنى هذه الحجرة وأمر لى بما أحتاج إليه فجلست عندها ساعة ، وإذا أنا قد أتانى خادم له ، فقال لى : قم فقمت فأدخلنى على سيده فإذا هو صاحبى بالأمس وهو جالس على سريره ، فقال : من تكون فقلت: يونس الكاتب ، قال : مرحبا بك قد كنت والله إليك بضنين وكنت أسمع بخبرك فكيف كان مبيتك فى ليليتك قلت : بخير أعزك الله ، قال : فلعلك ندمت على ماكان منك البارحة وقلت دفعت جاريتى إلى رجل لاأعرفه ولا أعرف اسمه ولامن أى البلاد هو ، فقلت : معاذ الله أيها الأمير أن أندم ولو أهديتها إلى الأمير كانت أقل وأخس وماقدر هذه الجارية ، فقال : والله لكنى ندمت على أخذها منك ، وقلت: رجل غريب لايعرفنى وقد دهمته وسفهت عليه فى استعجالى لأخذ الجارية أفتذكر ماكان بيننا ، قلت : نعم قال : بعتنى هذه الجارية بخمسين ألف درهم قلت : نعم ، قال : هات ياغلام المال فوضعوه بين يديه ، فقال : هات ياغلام ألف دينار فأتى بها ثم قال : ياغلام هات خمسمائة دينار أخرى فجاء بها ثم قال : هذا ثمن جاريتك فضمه إليك وهذه ألف دينار لحسن ظنك بنا وهذه الخمسمائة دينار لنفقة طريقك وماتبتاعه لأهلك رضيت ، قلت : رضيت وقبلت يديه وقلت: والله قد ملأت عينى ويدى ثم قال : والله إنى لم أدخل بها ولاشبعت من غنائها على بها فجاءت فأمرها بالجلوس فجلست فقال لها : غنى فأنشدت تقول :

أيا من حاز كل الحسن طرا ... ويا حلو الشمائل والدلال

جميع الحسن فى عجم وعرب ... ومافى الكل مثلك ياغزالى

فعطفا ياملیح على محب ... بوعدك أو بطيف من خيال

حلالى فيك ذلى وافتضاحى وطاب لمقلتى سهر الليالى
وماأنا فيك أول مستهام فكم قبلى قتلت من الرجال
رضيتك لى من الدنيا نصيبا وأنت أعز من روحى ومالى

فطرب طربا شديدا وشكر حسن تأديبى لها وتعليمى إياها ثم قال : ياغلام قدم له دابة بسرجها وآلتها لركوبه وبغلا لحمل حوائجه وثقله ؛ ثم قال : يايونس إذا بلغك أن هذا الأمر قد أفضى إلى فالحق بى فوالله لأملأن لك يدك ولأعلين قدرك ولأغنينك مابقيت قال : فأخذت المال وانصرفت فلما أفضت الخلافة إليه سرت إليه ، فوفى والله بوعده وزاد فى إكرامى وكنت معه على أسر حال وأسمى منزلة ، وقد اتسعت أحوالى وكثرت أموالى وصار لى من الضياع والأملاك مايكفينى إلى مماتى ويكفى من بعدى ولم أزل معه حتى قتل عفا الله عنه .

[٣٩] وقيل : إنه لما حج هشام فى أيام أبيه طاف بالبيت وجهد أن يصلى إلى الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أهل الشام . فبينما هو كذلك إذا أقبل زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنهم[1] أجمعين ، وكان من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجا[2]، فطاف بالبيت

---

(١) زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب : رابع الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ، وأحد من كان يضرب بهم المثل فى الحلم والورع ، يقال له : علىّ الأصغر للتمييز بينه وبين أخيه ، ت[٩٤هـ - ٧١٢م] . انظر : وفيات الأعيان (١/٢٣٠) ، طبقات ابن سعد (٥/١٥٦) ، الحلية (٣/١٣٣) .

(٢) أرِج : فاحت منه رائحة طيبة .

فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحى له الناس حتى استلمه ، فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام : لاأعرفه مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، وكان أبو فراس الفرزدق حاضرا، فقال: أنا والله أعرفه ، فقال الشامى : من هذا ياأبا فراس ؟ فقال[1] :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ماجاء يستلم[2]
فى كفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم[3]
يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم[4]
ينشق نور الهدى من نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم[5]
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والخيم والشيم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
الله شرفه قدرا وعظمه ... جرى بذاك له فى لوحه القلم
وليس قولك من هذا بضائره ... والعرب تعرف من أنكرت والعجم

---

(١) انظر : ديوان الفرزدق ص ٥١١ .

(٢) الحَطِيم : جدار حجر الكعبة ، سمى بذلك لانحطام الناس عنده ، أى لازدحامهم ..

(٣) خَيْزُران : عود من الخشب اللين . العِرَان : عود يجعل فى الأنف

(٤) غَضَّ : نضرُ . يغضى ، بمعنى : منع النظر إليه من مهابته

(٥) القَتَمَ : ضرب من السواد.

كلتا يديه غياث عم نفعها ... يستو كفان ولايعروهما عدم[1]
سهل الخليقة لاتخشى بوادره ... يزينه اثنان حسن الخلق والشيم[2]
حمال أثقال أقوام إذا اقترحوا ... حلو الشمائل يحلو عنده نعم
ماقال لا قط إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم
عم البرية بالإحسان فانقشعت ... عنها الغياهب والإملاق والعدم
من معشر حبهم دين وبغضهمو ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل ومن خير أهل الأرض قيل هم
لايستطيع جواد بعد غايتهم ... ولايداينهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت ... والأسد أسد الشرى والباس محتدم[3]
لاينقص العسر بسطا من أكفهم ... سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل بدء ومختوم به الكلم
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم ... خلق كريم وأيد بالندى هضم
أي الخلائق ليست في رقابهم ... لاولية هذا أوله نعم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم

فلما سمع هشام ذلك غضب وحبس الفرزدق ، فأنفذ له زين العابدين رضي الله عنه اثني عشر ألف درهم فردها وقال : مدحته لله لاللعطاء والصلات فقال زين العابدين : إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئا لانعود فيه ، فقبلها الفرزدق، انتهى[4] .

---

(١) غِيَاث : ما أغثت به المضطر من طعام وغيره.

(٢) بَوادِره : ما يبدو من الإنسان عند حدته .

(٣) الشَرَى، جمعها أشراء: مَأسده جانب الفرات. يضرب بها المثل فيقال:كأسد الشرى.

(٤) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/٢٠) .

[٤٠] **ومما يحكى** : أن هشام بن عبد الملك كان ذات يوم فى صيده وقنصه ، إذ نظر إلى ظبى تتبعه الكلاب فتبعه وأحالته إلى خباء أعرابى يرعى غنما ، فقال هشام: ياصبى دونك هذا الظبى ، فأْتِنى به ، فرفع الصبى رأسه إليه وقال له : ياجاهل بقدر الأخيار لقد نظرت إلىَّ باستصغار وكلمتنى باحتقار فكلامك كلام جبار وفعلك فعل حمار ، فقال هشام : ياصبى ويلك ماتعرفنى ! فقال : قد عرّفنى بك سوء أدبك، إذ بدأتنى بكلامك قبل سلامك ، فقال : ويلك أنا هشام بن عبد الملك ، فقال له الاعرابى : لاقرب دارك ولاحيا مزارك ما أكثر كلامك وأقل إكرامك ؛ فما استتم حتى أحدقت به الجيوش من كل جانب كلٌّ منهم يقول : السلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال هشام : أقصروا الكلام واحفظوا الغلام فقبضوا عليه .

ورجع هشام إلى قصره وجلس فى مجلسه وقال : علىَّ بالغلام البدوى فأتى به ، فلما رأى الغلام كثرة الغلمان ، والحجاب ، والوزراء ، والكتاب، وأبناء الدولة ، وأرباب الصولة ، لم يكترث[1] بهم ، ولم يسأل عنهم ، بل جعل ذقنه على صدره ، وجعل ينظر حيث تقع قدماه إلى أن وصل إلى هشام، فوقف بين يديه ونكس رأسه إلى الأرض وسكت الغلام وامتنع من الكلام ، فقال بعض الخدام : ياكلب العرب مامنعك أن تسلم على أمير المؤمنين؟ فالتفت إليه مغضبا وقال : يابرذعة الحمار منعنى من ذلك : طول الطريق ونهر الدرجة[2] والتعويق . فقال هشام : وقد تزايد به

---

(١)لم يكترث : لم يعبأ .

(٢) نهر الدرجة : الأمور العظيمة .

الغضب ياصبى قد حضرت فى يوم حضر فيه أجلك وخاب فيه أملك وانصرم فيه عمرك ، فقال له الصبى : والله ياهشام لئن كان فى المدة تأخير ماضرنى من كلامك لاقليل ولاكثير، فقال له الحاجب : بلغ من أمرك ومحلك ياأخس العرب أن تخاطب أمير المؤمنين كلمة بكلمة ، فقال له مسرعا : لقيك الخذل ولأمك الويل والهبل أما سمعت ماقال الله تعالى ﴿يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها﴾ [النحل: ١١١] فإذا كان الله يجادل جدالا ، فمن هشام حتى لايخاطب خطابا ؛ فعند ذلك : قام هشام واغتاظ غيظا شديدا وقال : ياسياف على برأس هذا الغلام ؛ فقد أكثر الكلام فيما لايخطر على الأوهام ، فقام السياف وأخذ الغلام وبركه فى نطع الدم وسل سيف النقمة على رأسه، وقال : ياأمير المؤمنين عبدك المذل بنفسه المتقلب فى رمسه[1] أأضرب عنقه وأنا برئ من دمه؟ قال : نعم فاستأذنه ثانية ، فأذن له ، ثم استأذنه ثالثة، فهم أن يأذن له فضحك الصبى حتى بدت نواجذه فازداد هشام منه تعجبا ، وقال : ياصبى أظنك معتوها ترى أنك مفارق الدنيا ومزايل الحياة وأنت تضحك هزأ بنفسك ، فقال: يا أمير المؤمنين لئن كان فى المدة تأخير ولم يكن فى الأجل تقصير ماضرّنى منك لا قليل ولاكثير ، ولكن أبيات حضرت الساعة فاسمعها فقتلى لايفوت فأكثر الصموت ، فقال هشام : هات وأوجز فهذا أول أوقاتك من الآخرة وآخر أوقاتك من الدنيا فأنشد يقول :

نُبئت أن البـاز عـلق مـرة ... عصفور بـر ساقه المقـدور

فتعلق العصفـور فـى أظفـاره ... والبـاز منهمـك عليـه يطيـر

---

(١) الرَمَسَ : القبر .

فأتى لسان الحال يخبر قائلا ... ها ظفرت وإننى مأسور
مثلى فما يغنى لمثلك جوعة ... ولئن أكلت فإننى محقور
فتبسم البـاز المدل بنفسه ... طربا وأطلق ذلك العصفور[1]

قال : فتبسم هشام ، وقال : وقرابتى من رسول الله ﷺ لو تلفظ بهذا من أول وقت من أوقاته وطلب مادون الخلافة لأعطيته ، ياخادم : احش فاه درا وجوهرا وأحسن جائزته ودعه يمض إلى حال سبيله .

[٤١] وقيل : وفد عروة بن أذينة[2] على هشام بن عبد الملك فشكا إليه فقره، فقال ألست القائل :

لقد علمت وما الإسراف من خلقى ... أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليه فيعيينى تطلبه ... وإن قعدت أتانى ليس يعيينى

وخرجت الآن من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق ، فقال : ياأمير المؤمنين وعظت فأبلغت ، وخرج وركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعا .

فلما كان الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة ، وقال : رجل من قريش قال حكمة ووفد علىَّ فرددته خائبا . فلما أصبح وجه إليه بألفى دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة فأعطاه المال ، فقال : أبلغ عنى أمير المؤمنين السلام وقل له : كيف رأيت قولى سعيت فأكديت[3] فرجعت خائبا فجلست فى دارى فأتانى رزقى فى منزلى انتهى .

---

(١) المُدِلّ : الواثق بنفسه .

(٢) عروة بن يحيى بن مالك ، ابن أذينة : شاعر غزل ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضا . ت[١٣٠هـ-٧٤٧م] . انظر : الشعر والشعراء ص٢٢٥ .

(٣) أكدى : ألح فى الطلب .